التوبة

دراسة في شروطها وآثارها

السيد كمال الحيدري


مؤسسة
الامام الجواد (ع)
تأسست 1427 هـ
للفكر والثقافة

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

النور: ٣١

فضيلة التوبة في القرآن والحديث

التوبة أوّل مقامات الدين، ورأس مال السالكين، ومفتاح استقامة السائلين ومطلع التقرّب إلى ربّ العالمين، ومدحها عظيم وفضلها جسيم.

• قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1] والآية مطلقة غير مقيّدة، فتشمل جميع مراتب التوبة والطهارة، ولا يبعد استفادة المبالغة من قوله تعالى **المتطهّرين** كما هو الحال في قوله **التوابين** فينتج استفادة الكثرة في التوبة والطهارة من حيث النوع ومن حيث العدد جميعاً، بمعنى «أنّ الله يحبّ جميع أنواع التوبة سواء كانت بالاستغفار أو بامتثال كلّ أمر ونهي من تكاليفه، أو باتّخاذ كلّ اعتقاد من الاعتقادات الحقّة، ويحبّ جميع أنواع التطهّر سواء كان بالاغتسال والوضوء والغسل، أو التطهّر بالأعمال الصالحة أو العلوم

(١) البقرة: ٢٢٢.

الحقّة، ويحبّ تكرار التوبة وتكرار التطهّر»[١].

• وعن ابن أبي عمير عن بعض أصحابنا رفعه قال: «إنّ الله عزّ وجلّ أعطى التائبين ثلاث خصال لو أعطى خصلة منها جميع أهل السماوات والأرض لنجوا بها:

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٢] فمن أحبّه الله لم يعذّبه.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْء رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٣].

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، للعلاّمة السيّد محمّد حسين الطباطبائي: ج٢ ص ٢١٢ منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة.

(٢) البقرة: ٢٢٢.

(٣) غافر: ٧ ـ ٩.

النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَات وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[1]»[2].

• عن أبي عبيدة الحذّاء قال: سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول: «إنّ الله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها»[3].

• وعن جابر عن الإمام الباقر عليه السلام قال: سمعته يقول: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزي»[4].

ولعلّ المراد من قوله «كمن لا ذنب له» في عدم العقوبة لا التساوي في الدرجة، وإن كان غير مستبعد في بعض أفرادهما.

---

(1) الفرقان 68 ـ 70.

(2) **الأصول من الكافي**، لثقة الإسلام أبي جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي: ج2 ص432، كتاب الإيمان والكفر، باب التوبة، الحديث: 5، دار صعب، دار التعارف للمطبوعات.

(3) المصدر السابق: ج2 ص435، الحديث: 8.

(4) المصدر السابق: الحديث: 10.

• وعن معاوية بن وهب قال: «سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبّه فستر عليه. فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: ينسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه ويوحي الله إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه فيلقى الله عزّ وجلّ حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب»[1].

(1) المصدر السابق: ج2 ص436، الحديث: 12.

الفصل الأول

تعريف التوبة وخصائصها وآثارها

ما هي التوبة؟

اختصاص التوبة بنشأة الدنيا.

توبة العبد محفوفة بتوبتين من الله تعالى.

قبول التوبة من الله لعبده فضل منه تعالى.

الحكمة من تشريع التوبة.

تشريع التوبة والإغراء بالمعصية.

لا شفيع أنجح من التوبة.

ما هي التوبة

التوبة هي الرجوع الاختياري عن السيّئة والمعصية إلى الطاعة والعبودية.

تفصيل هذا الإجمال:

أنّ النفس في بدء فطرتها خالية من كلّ أنواع الكمال والجمال والنور والبهجة، كما أنّها خالية أيضاً من أضداد هذه الصفات المذكورة؛ قال تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] فكأنّ النفس صفحة نقيّة من كلّ رسم ونقش لا توجد فيها الكمالات الروحية ولا تتّصف بالنعوت المضادّة لها، لكن قد أودع الله فيها نور الاستعداد والأهلية لنيل أيّ مقام رفيع أو وضيع:

---

(١) النحل: ٧٨.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[(١)] وأُنشئت فطرتها على الاستقامة وعجنت طينتها بالأنوار الذاتية؛ قال عزّ وجلّ: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[(٢)].

وعندما تجترح سيّئة تحصل في القلب ظلمة وسواد، وكلّما ازدادت المعاصي تضاعف ذلك إلى أن يغشى الظلام والسواد القلب كلّه وينطفئ نور الفطرة ويبلغ مرتبة الشقاء الأبدي.

عن ابن بكير عن زرارة عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: **ما من عبد إلاّ وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب** (أي إذا لجّ ودام على فعله) **زاد السواد حتّى يغطّي البياض، فإذا تغطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله عزّ وجل: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[(٣)(٤)].

---

(١) الشمس: ٧ ـ ١٠.

(٢) الروم: ٣٠.

(٣) المطففين : ١٤.

(٤) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٢٧٣، كتاب الإيمان والكفر، باب الذنوب، الحديث: ٢٠.

وهذا معناه أنّ الإنسان إذا انتبه قبل أن يستوعب الظلام والسواد القلب كلّه، ثمّ اجتاز منزلة اليقظة ودخل على منزل التوبة واستوفى حظوظ هذا المنزل حسب الشرائط التي سنأتي على ذكرها، زالت الحالات الظلمانية والكدورات الطبيعية، وعاد إلى الحالة الفطرية النورية الأصيلة، وكأنّما تنقلب النفس إلى صفحة خالية من جميع الكمالات وأضدادها، كما ورد في الحديث المتقدّم: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**».

وإذا كان كذلك فورود الإنسان منازل الكرامة والاستقرار في مستقرّ السعادة يتوقّف على انصرافه عمّا هو فيه من مهبط الشقاء ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[١] وانقلاعه عنه برجوعه إلى ربّه ـ وهو توبته إليه ـ في أصل السعادة وهو الإيمان، وفي كلّ سعادة فرعية وهي كلّ عمل صالح، أعني التوبة والرجوع عن أصل الشقاء وهو الشرك بالله سبحانه، وعن فروعات الشقاء وهي سيّئات الأعمال بعد الشرك.

فالتوبة بمعنى الرجوع إلى الله والانخلاع عن ألوان البُعد والشقاء يتوقّف عليها الاستقرار في دار الكرامة بالإيمان، والتنعّم بأقسام نعم الطاعات والقربات، وبعبارة واضحة يتوقّف القرب من

---

(١) طه: ١١٧.

الله ودار كرامته على التوبة من الشرك ومن كلّ معصية؛ قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

فالتوبة بمعنى الرجوع إلى الله تعمّ التوبتين جميعاً، بل تعمّهما وغيرهما على ما سيجيء إن شاء الله.

(١) النور: ٣١.

اختصاص التوبة بنشأة الدنيا

تختصّ التوبة بهذه النشأة الدنيوية دون الآخرة، لما عرفت أنّ التوبة هي الرجوع الاختياري عن السيّئة إلى الطاعة والعبودية، ولا يتحقّق هذا إلاّ في ظرف الاختيار وهي الحياة الدنيا، أمّا فيما لا اختيار للعبد في انتخاب كلّ من طريقي الصلاح والطلاح والسعادة والشقاوة فلا مسرح للتوبة فيه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَة ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيب فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[1].

أشارت الآية الأخيرة إلى مصداقين لعدم قبول توبة العبد:

---

(١) النساء: ١٧ ـ ١٨.

المصداق الأوّل: أنّ من حضره الموت وشاهد أهواله فإنّ توبته غير مقبولة، ويدلّ عليه ما في هذه الآية حيث يظهر من تقييد قوله ﴿قال إنّي تبت﴾ بقوله: ﴿الآن﴾ أنّ حضور الموت ومشاهدة هذا القائل سلطان الآخرة هما الموجبان له أن يقول تبتُ، سواء ذكره أو لم يذكره، فالمعنى: إنّي تائب لمّا شاهدت الموت الحقّ والجزاء الحقّ، وقد قال تعالى في نظيره عن المجرمين يوم القيامة: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[1]. فهذه توبة لا تقبل من صاحبها، لأنّ اليأس من الحياة الدنيا وهول المطّلع هما اللذان أجبراه على أن يندم على فعله ويعزم على الرجوع إلى ربّه، ولات حين رجوع؛ حيث لا حياة دنيوية ولا خيرة عملية.

قال الرازي في ذيل هذه الآية: «المانع من قبول التوبة أنّ الإنسان عند القرب من الموت إذا شاهد أحوالاً وأهوالاً صارت معرفته بالله ضرورية عند مشاهدة تلك الأهوال، ومتى صارت معرفته بالله ضرورية سقط التكليف عنه، ألا ترى أنّ أهل الآخرة لمّا صارت معارفهم ضرورية سقط التكليف عنهم وإن لم يكن هناك موت ولا عقاب، لأنّ توبتهم عند الحشر والحساب وقبل دخول

(١) السجدة: ١٢.

النار لا تكون مقبولة»[١].

وهذا ما أيّدته الروايات الكثيرة الواردة في المقام:

• عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته**، ثمّ قال: **إنّ السنة لكثيرة من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته**، ثمّ قال: **إنّ الشهر لكثير من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته**، ثمّ قال: **إنّ يوماً لكثير من تاب قبل أن يعاين قبل الله توبته**»[٢].

• وعن الإمام محمّد الباقر عليه السلام قال: «**إنّ آدم عليه السلام** قال: **يا ربّ سلّطت عليّ الشيطان وأجريته منّي مجرى الدم فاجعل لي شيئاً فقال: يا آدم جعلت لك أنّ من همّ من ذريتك بسيّئة لم تُكتب عليه، فإن عملها كُتبت عليه سيّئة، ومن همّ منهم بحسنة فإن لم يعملها كُتبت له حسنة، فإن هو عملها كُتبت له عشراً. قال: يا ربّ زدني. قال: جعلت لك أنّ من عمل منهم سيّئة ثمّ استغفر له غفرت له. قال: يا ربّ زدني، قال: جعلت لهم التوبة، أو قال: بسطت لهم التوبة حتّى تبلغ**

(١) **التفسير الكبير** أو **مفاتيح الغيب**، للإمام فخر الدين محمّد بن عمر الرازي الشافعي (٥٤٤ ـ ٦٠٤هـ) ج١٠ ص٧، منشورات محمّد علي بيضون لنشر كتب السنّة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط. الأولى ١٤٢١ هـ

(٢) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٤٤٠، كتاب الإيمان والكفر، باب فيما أعطى الله عزّ وجلّ آدم عليه السلام وقت التوبة، الحديث: ٢.

النفس هذه، قال : يا ربّ حسبي»[١].

• أخرج ابن جرير عن الحسن قال: بلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**إنّ إبليس لمّا رأى آدم أجوف قال: وعزّتك لا أخرج من جوفه ما دام فيه الروح، فقال الله تبارك وتعالى: وعزّتي لا أحول بينه وبين التوبة ما دام الروح فيه»**[٢].

• وأخرج أحمد والترمذي وحسّنه وابن ماجة والحاكم وصحّحه والبيهقي في الشعب عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «**إنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»**[٣].

ممّا تقدّم اتّضح أنّ ما ذكره البعض في قوله تعالى – في قصّة غرق فرعون وتوبته– : ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ * أَلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ﴾[٤] من أنّ الآية لا تدلّ على ردّ توبته، وليس في القرآن أيضاً ما يدلّ على هلاكه الأبدي، وأنّه من المستبعد عند من يتأمّل سعة رحمة الله وسبقتها غضبه أن يجوز

(١) المصدر السابق: الحديث: ١.

(٢) **الدرّ المنثور في التفسير المأثور**، للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي: ج٢ ص٤٥٩، دار الفكر.

(٣) **الدرّ المنثور في التفسير المأثور**، مصدر سابق: ج٢ ص٤٦٠.

(٤) يونس: ٩٠ ـ ٩١.

عليه تعالى أنّه يردّ من التجأ إلى باب رحمته وكرامته متذلّلاً مستكيناً بالخيبة واليأس، والواحد منّا إذا أخذ بالأخلاق الإنسانية الفطرية من الكرم والجود والرحمة ليرحم أمثال هذا الإنسان النادم حقيقة على ما قدّم من سوء الفعال، فكيف بمن هو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين وغياث المستغيثين؟...

اتّضح أنّ هذا الكلام غير مقبول؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ حيث تبيّن أنّ الندامة حينئذ ندم كاذب يسوق الإنسان إلى إظهاره مشاهدته وبال الذنب ونزول البلاء.

ولو كان كلّ ندم توبة، وكلّ توبة مقبولة، للزم قبول توبة المجرمين يوم القيامة حيث قال تعالى عنهم: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ﴾[١]، ولما كان سؤال المجرمين الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحاً مردوداً؛ قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢].

المصداق الثاني لعدم قبول التوبة: ما ورد في قوله: ﴿وَلاَ الَّذِينَ

(١) سبأ: ٣٣.
(٢) المنافقون: ١٠ ـ ١١.

يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾. وفيه وجهان:

• كما أنّ التوبة عن المعاصي لا تُقبل عند القرب من المـوت، كذلك الإيمان لا يُقبل عند القرب من الموت.

• إنّ الإنسان إذا تمادى في الكفر ثمّ مات وهو كافر فإنّ الله لا يتوب عليه، وقد تكرّر في القرآن الكريم أنّ الكفر لا نجاة معه بعـد الموت وأنّهم لا يجابون وإن سألوا؛ قال تعـالى: ﴿إلاَّ الَّـذِينَ تَـابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَـيْهِمْ وَأَنَـا التَّـوَّابُ الـرَّحِيمُ * إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَـيْهِمْ لَعْنَـةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَـةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّـفُ عَـنْهُمُ الْعَـذَابُ وَلاَ هُـمْ يُنظَرُونَ﴾[1]. وقال: ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِـهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[2].

(١) البقرة: ١٦٠ ـ ١٦٢.

(٢) آل عمران: ٩١.

توبة العبد محفوفة بتوبتين من الله تعالى

لمّا كان الإنسان في مسيره الاختياري إلى ربّه فقيراً كلّ الفقر في ذاته صفر الكفّ بحسب نفسه كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1] وقال: ﴿وَلاَ يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً﴾[2]، كان محتاجاً في هذا الرجوع (التوبة) أيضاً إلى عناية من ربّه بأمره وإعانة منه له في شأنه، فيحتاج رجوعه إلى ربّه بالعبودية والمسكنة إلى رجوع من ربّه إليه بالتوفيق والإعانة، وهو توبة الله سبحانه لعبده المتقدّمة على توبة العبد إلى ربّه كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ

---

(١) فاطر: ١٥.

(٢) الفرقان: ٣.

لِيَتُوبُوا إنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[١]. وكذلك الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى يحتاج إلى قبوله بمغفرة الذنوب وتطهيره من القذارات وألوان البُعد، وهذه هي التوبة الثانية من الله سبحانه المتأخّرة عن توبة العبد إلى ربّه، كما قال تعالى: ﴿إنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَة ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيب فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[٢].

والحاصل أنّ توبة العبد محفوفة بتوبتين من الربّ تعالى، حيث إنّه يرجع تعالى إلى العبد بالتوفيق وإفاضة رحمة الهداية وهي التوبة الأولى منه، فيهتدي العبد إلى الاستغفار وهو توبته، فيرجع تعالى إليه بقبول توبته وغفران ذنوبه وهي التوبة الثانية منه تعالى.

وإذا تأمّلت حقّ التأمّل وجدت أنّ التعدّد في توبة الله سبحانه إنّما عرض لها من حيث قياسها إلى توبة العبد وإلاّ فهي توبة واحدة هي رجوع الله سبحانه إلى عبده بالرحمة، ويكون ذلك عند توبة العبد رجوعاً إليه قبلها وبعدها. وربما كان مع عدم توبة من العبد، حيث يمكن استفادة ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾[٣] فتقييد الجملة بقوله: «وهم كفّار» يدلّ على

(١) التوبة: ١١٨.
(٢) النساء: ١٧.
(٣) النساء: ١٨.

التوبة للعاصي المؤمن إذا مات على المعصية من غير استكبار ولا تساهل، فإنّ التوبة من العبد بمعنى رجوعه إلى عبودية اختيارية وإن ارتفع موضوعها كما تقدّم، لكن التوبة منه تعالى بمعنى الرجوع بالمغفرة والرحمة يمكن أن يتحقّق بعد الموت لشفاعة الشافعين.

وهذا معناه أنّ قبول الشفاعة في حقّ العبد المذنب يوم القيامة يعدّ من مصاديق التوبة، ولعلّ قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾[1] يدلّ على ذلك.

---

(١) النساء: ٢٧.

قبول التوبة من الله لعبده فضل منه تعالى

إنّ التوبة من الله سبحانه لعبده أعمّ من المبتدئة واللاحقة (الأولى والثانية) فضل منه كسائر النعم التي يتنعّم بها على خلقه من غير إلزام وإيجاب عليه سبحانه من غيره، وليس معنى وجوب قبول التوبة عليه عقلاً إلاّ ما يدلّ عليه أمثال قوله تعالى : ﴿قَابِلِ التَّوْبِ﴾[1] وقوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾[2] وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[3] وقوله: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾[4] وغيرها من الآيات المتضمّنة لتوصيفه تعالى بقبول التوبة والنادبة إلى التوبة والداعية إلى الاستغفار والإنابة وغيرها، المشتملة على

---

(١) غافر: ٣.

(٢) النور: ٣١.

(٣) البقرة: ٢٢٢.

(٤) النساء : ١٧.

وعد القبول بالمطابقة أو الالتزام، والله سبحانه لا يخلف الميعاد.

وحسب هذا الوعد أوجب على نفسه ذلك حيث قال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ فيجب عليه تعالى قبول التوبة لعباده، لكن لا على أنّ لغيره أن يوجب عليه شيئاً أو يكلّفه بتكليف، سواء سمّي ذلك الغير بالعقل أو نفس الأمر أو الواقع أو الحقّ أو شيئاً آخر، تعالى عن ذلك وتقدّس، بل على أنّه تعالى وعد عباده أن يقبل توبة التائب منهم وهو لا يخلف الميعاد.

فهذا معنى وجوب قبول التوبة على الله فيما يجب، وهو أيضاً معنى وجوب كلّ ما يجب على الله من الفعل.

من هنا يظهر أنّ الله سبحانه غير مجبور في قبول التوبة، بل له الملك من غير استثناء، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يقبل ما يقبل من التوبة على ما وعد ويردّ ما يردّ منها، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾[1] ويمكن أن يكون من هذا الباب قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾[2].

(١) آل عمران: ٩٠.
(٢) النساء: ١٣٧.

الحكمة من تشريع التوبة

الملاك الذي شُرّعت لأجله التوبة هو التخلّص من هلاك الذنب وبوار المعصية لكونها وسيلة الفلاح ومقدّمة الفوز بالسعادة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

ومن فوائدها مضافاً إلى ذلك أنّ فيها حفظاً لروح الرجاء من الانخماد والركود، فإنّ الإنسان لا يستقيم سيره الحيوي إلاّ بالخوف والرجاء المتعادلين حتّى يندفع عمّا يضرّه وينجذب إلى ما ينفعه، ولولا ذلك لهلك؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[2].

ولا يزال الإنسان على ما نعرف من غريزته على نشاط من الروح

---

(١) النور: ٣١.

(٢) الزمر: ٥٣.

الفعّالة وجدّ في العزيمة والسعي ما لم تخسر صفقته فـي متجـر الحيـاة، وإذا بدا له ما يخسر عمله ويخيب سعيه ويبطـل أُمنيتـه اسـتولى عليـه اليأس وانسلّت به أركان عمله، وربما انصرف بوجهـه عـن مسـيره آيساً من النجاح خائباً من الفوز والفلاح، والتوبـة هـي الـدواء الوحيـد الذي يعالج داءه ويحيي به قلبه وقد أشرف على الهلكة والردى.

تشريع التوبة والإغراء بالمعصية

قد يقال إنّ في تشريع التوبة والدعوة إليها إغراءً بالمعصية وتحريضاً على ترك الطاعة، فإنّ الإنسان إذا أيقن أنّ الله يقبل توبته إذا اقترف أيّ معصية من المعاصي لم يخلّف ذلك في نفسه أثراً دون أن تزيد جرأته على هتك حرمات الله والانغمار في لجج المعاصي والذنوب، فيدقّ باب كلّ معصية قاصداً أن يذنب ثمّ يتوب.

والجواب: إنّ من ذكر أن استلزام التوبة أن يقصد الإنسان كلّ معصية بنيّة أن يعصي ثمّ يتوب، قد فاته أنّ التوبة على هذا النحو لا يتحقّق معها حقيقة التوبة واقعاً، لأنّ التوبة حقيقة هي انقلاع عن المعصية، ولا انقلاع في هذا الذي يأتي به.

والدليل عليه أنّه كان عازماً على ذلك قبل المعصية ومع المعصية وبعد المعصية، ولا معنى للندامة – أي التوبة – قبل تحقّق الفعل، بل مجموع الفعل والتوبة في أمثال هذه المعاصي مأخوذ

فعلاً واحداً، مقصود بقصد واحد مكراً وخديعة يخدع بها ربّ العالمين، ولا يحيق المكر السيئ إلاّ بأهله.

وإلى هذا يرجع جميع ما اعتبر شرعاً من آداب التوبة وشرائطها كالندم والاستغفار والتلبّس بالعمل الصالح والانقلاع عن المعصية وغير ذلك ممّا سيأتي بحثه لاحقاً إن شاء الله تعالى.

ولا يتنافى قبول التوبة مع تكرّر المعصية بعد التوبة الصادقة، لأنّه لم يكن مصرّاً عليها مستكبراً معانداً فيها؛ لذا ورد عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام قال: «**يا محمّد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله إنّها ليست إلاّ لأهل الإيمان**. قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب وعاد في التوبة؟ فقال: **يا محمّد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثمّ لا يقبل الله توبته؟** قلت: فإن فعل ذلك مراراً، يذنب ثمّ يتوب ويستغفر الله، فقال: **كلّما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، وإنّ الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيّئات، فإيّاك أن تقنّط المؤمنين من رحمة الله**»[1].

---

(١) **الأُصول من الكافي**: ج٢ ص٤٣٤، كتاب الإيمان والكفر، باب التوبة، الحديث: ٦.

لا شفيع أنجح من التوبة

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا شفيع أنجح من التوبة**»[1].

توضيح ذلك: ذكرنا في كتاب «الشفاعة» أنّ الشفاعة تنقسم إلى تكوينية وتشريعية، ولكلٍّ منهما شفعاء. وإنّ شفعاء الشفاعة التشريعية على قسمين، ولكي يتّضح السبب في ذلك لابدّ من الوقوف على مقدّمة حاصلها، أنّ القرآن الكريم والروايات الواردة عن النبي الأكرم وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام، ذكرت للذنوب والمعاصي آثاراً مترتّبة عليها في الدنيا والآخرة.

الآثار المترتّبة على الذنوب

أمّا الآثار المترتّبة عليها في النشأة الأخرى فهو العقاب الإلهي بما له من درجات مختلفة وفي مواقف متعدّدة من الاحتضار إلى

(١) **شرح العالم الربّاني كمال الدين ميثم بن علي البحراني على المئة كلمة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب**، ويليه شرحان على تلك الكلمات بعينها: ص ١٩٩ الكلمة ٣٩، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية بقم المقدّسة.

البرزخ ثمّ في الحشر الأكبر من الميـزان وتطـاير الكتـب، ثـمّ عنـد الصراط المستقيم ثمّ الحوض، ثمّ آخر هذه المواقف هـو الموقـف المرتبط بالجحيم ونار جهنّم.

وأمّا الآثار المترتّبة على الذنوب فـي النشـأة الـدنيا فهـي علـى قسمين فردية واجتماعية. **أمّا الآثار الفردية للذنوب**

● قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾[١] وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ يقابـل قولـه فـي الآيـة السـابقة: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾[٢] وكان مقتضى المقابلـة أن يقال: ومن لم يتّبع هداي، وإنّما عدل عنـه إلـى ذكـر الإعـراض عـن الذكر ليشير به إلى علّة الحكم، لأنّ نسيانه تعـالى والإعـراض عـن ذكره هو السبب لضنك العيش والعمى يوم القيامة، وليكـون توطئـة لما سيذكر من نسيانه تعالى يوم القيامة من نسيه فـي الـدنيا؛ قـال: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[٣].

● وقال تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٤] قال

---

(١) طه: ١٢٤.

(٢) طه: ١٢٣.

(٣) طه: ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٤) المطففين: ١٤.

الراغب في المفردات: «الرَيْن: صدأ يعلو الشيء الجليّ؛ قال: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي صار ذلك كصدأ على جلاء قلوبهم فعمي عليهم معرفة الخير من الشرّ»[1] فكون ما يكسبون - وهو الذنوب - ريناً على قلوبهم هو حيلولة الذنوب بينهم وبين أن يدركوا الحقّ على ما هو عليه. ويظهر من الآية:

أوّلاً: إنّ للأعمال السيّئة نقوشاً وصوراً في النفس تنتقش وتتصوّر بها.

ثانياً: إنّ هذه النقوش والصور تمنع النفس أن تدرك الحقّ كما هو وتحول بينها وبينه.

ثالثاً: إنّ للنفس بحسب طبعها الأوّلي صفاءً وجلاءً تدرك به الحقّ كما هو وتميّز بينه وبين الباطل وتفرّق بين التقوى والفجور»[2].

وإذا حصل الرين والصدأ على القلب عمي القلب؛ قال عزّ من قائل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ

---

(١) **المفردات في غريب القرآن**، تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمّد المعروف بالراغب الإصفهاني: ص٢٠٨، مادّة رَين. دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**: ج٢٠ ص٢٣٤.

الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(١).

أمّا الآثار الاجتماعية للذنوب، فقد أشارت الآيات القرآنية أنّ هناك رابطة بين فجور الإنسان وإفساده في الأرض وبين ظهور الكوارث والأمراض ونحوهما:

• قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَان عَنْ يَمِين وَشِمَال كُلُوا مِنْ رِزْق رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَي أُكُل خَمْط وَأَثْل وَشَيْء مِنْ سِدْر قَلِيل * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إلاَّ الْكَفُورَ﴾(٢).

• وقال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٣).

• وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَات مِنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٤).

---

(١) الحجّ: ٤٦.
(٢) سبأ: ١٥ ـ ١٧.
(٣) الروم: ٤١.
(٤) الأعراف: ٩٦.

فهذه الآيات ونظائرها تشير إلى أنّ الحوادث الكونية لها نحو ارتباط وتبعية للأعمال الإنسانية، فإذا جرى النوع الإنساني على طاعة الله سبحانه وسلك الطريق الذي يرتضيه فإنّه يستتبع نزول الخيرات وانفتاح أبواب البركات ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَات مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾.

أمّا إذا انحرف عن صراط العبودية وتمادى في الغيّ والضلال وفساد النيّات وشناعة الأعمال، فإنّ ذلك يوجب ظهور الفساد في البرّ والبحر وهلاك الأُمم بانتشار الظلم وارتفاع الأمن وبروز الحروب وسائر الشرور الراجعة إلى الإنسان وأعماله، وكذا تظهر المصائب والحوادث الكونية المبيدة كالسيل والزلزلة والصاعقة والطوفان وغير ذلك.

عود على بدء

في ضوء الحقيقة المتقدّمة التي وقفنا عليها يتّضح أنّ حاجة الإنسان إلى الشفاعة التشريعية لا تختصّ بالنشأة الأخرى، وإنّما تمتدّ لتشمل هذه النشأة أيضاً ، لأنّ الآثار المترتّبة على فجور الإنسان ومعاصيه لا تختصّ بتلك النشأة، وإنّما ترافق الإنسان في كلّ مراحل حياته الدنيوية أيضاً. من هنا تنبثق الحاجة إلى الشفاعة في الدنيا لكي تهيّأ الأرضية للانتفاع بشفاعة الشافعين في الأخرى.

وقد أشارت الآيات والروايات إلى أنّ شفعاء النشأة الدنيوية

هم الملائكة والأنبياء وغيرهما، إلاّ أنّ أفضل الشفعاء في هذه النشأة هي التوبة، وكما قال إمام المتّقين: **لا شفيع أنجح من التوبة**[(١)].

ولعلّ السبب في كون التوبة أفضل وأنجح شفيع للإنسان مع وجود غيرها من الشفعاء كالملائكة والأنبياء عليهم السلام، يعود إلى أنّ غيرها محدود بحدود معيّنة لا تتعدّاها. فمثلاً مع أنّه لا يتصوّر في الوجود شافع فوق أشفع الشافعين تبارك وتعالى، مع ذلك فإنّه شفاعته يوم القيامة لا تشمل من يموت مشركاً؛ لقوله تعالى وقوله الحقّ: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[(٢)].

وأمّا ما دون أشفع الشافعين من الشفعاء، فإنّ لشفاعتهم شروطاً وحدوداً لا يتعدّونها كما أوضحناه في مباحث الشفاعة. فهم لا يستغفرون إلاّ لمن ارتضى الله دينه، ولا يشفعون إلاّ لمن كان بينه وبين الله عهد؛ من هنا خاطب الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله بشأن المنافقين: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا باللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[(٣)].

---

(١) **شرح المئة كلمة لأمير المؤمنين**، لميثم بن علي البحراني، مصدر سابق: ص١٩٩.
(٢) النساء: ٤٨.
(٣) التوبة: ٨٠.

ولا يعني ذلك أنّ الرسول صلى الله عليه وآله كان يستغفر للكفّار والمنافقين، وإنّما على فرض أنّه صلى الله عليه وآله استغفر لهم فإنّ استغفاره لن ينفعهم لأنّهم كفروا بالله ورسوله، ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[1].

وأمّا استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه مع أنّه مشرك، فقد أجاب عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأبِيهِ إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[2].

وأمّا التوبة فإنّها شافعة للإنسان حتّى من الشرك والكفر والنفاق، وهذا ما يستفاد من مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[3] والتدقيق في مفردات هذه الآية يبيّن أنّها من أكثر آيات القرآن الكريم التي تعطي الأمل للمذنبين، فشموليتها وسعتها وصلت إلى درجة قال بشأنها الإمام أمير

(١) التوبة: ١١٣.
(٢) التوبة: ١١٤.
(٣) الزمر: ٥٣.

المؤمنين عليه السلام: «**ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية**»[(١)].

ولعلّه يمكن الإشارة إلى بعض الوجوه التي تثبت هذه الحقيقة:

• «التعبير بـ ﴿**يا عبادي**﴾ هي بداية لطف الباري عزّ وجلّ.

• التعبير بـ ﴿لا تسرفوا﴾ بدلاً من الظلم والذنب والجريمة هو لطف آخر.

• ﴿على أنفسهم﴾ يبيّن أنّ ذنوب الإنسان تعود كلّها عليه. وهذا التعبير علامة أُخرى من علامات محبّة الله لعباده، وهو يشبه خطاب الأب الحريص لولده عندما يقول: لا تظلم نفسك أكثر من هذا.

• التعبير بـ ﴿لا تقنطوا﴾ مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ القنوط يعني في الأصل اليأس من الخير، فإنّه وحده دليل على أنّ المذنبين ينبغي أن لا يقنطوا من اللطف الإلهي.

• عبارة ﴿من رحمة الله﴾ التي وردت بعد عبارة ﴿لا تقنطوا﴾ تأكيد آخر على هذا الخير والمحبّة.

• عندما نصل إلى عبارة ﴿إنّ الله يغفر الذنوب﴾ التي بدأت بتأكيد، وكلمة ﴿الذنوب﴾ التي جُمعت بالألف واللام، لتشمل كلّ

---

(١) **الجامع لأحكام القرآن**، لأبي عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، المتوفّى: ٦٧١هـ: ج١٥ ص٢٦٩، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

الذنوب من دون أي استثناء، فإنّ الكلام يصل إلى أوجه، وعندها تتلاطم أمواج بحر الرحمة الإلهية.

• إنّ ورود كلمة ﴿جميعاً﴾ كتأكيد آخر للتأكيد السابق يوصل الإنسان إلى أقصى درجات الأمل.

• وصف الباري عزّوجلّ بـ ﴿الغفور الرحيم﴾ في آخر الآية، وهما وصفان من أوصاف الله الباعثة على الأمل، فلا يبقى عند الإنسان أدنى شعور باليأس أو فقدان الأمل»[١].

تعارض متوهّم

قد يُتوهّم أنّ هناك تعارضاً بين عمومية هذه الآية التي تشمل الذنوب جميعاً حتّى الشرك، وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[٢] حيث جعلت الشرك من الذنوب التي لا تُغتفر.

والجواب أنّ مورد آية سورة الزمر مشروط بعود الإنسان إلى نفسه بعد ارتكاب الذنب، والتوجّه إلى مسيره نحو الباري عزّ وجلّ والإنابة إليه، والاستسلام لأوامره، وبدون ذلك فلا مجال لغفران

---

(١) **الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل**، تأليف: العلاّمة الفقيه المفسّر الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: ج١٥ ص٨٩، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى.

(٢) النساء: ٤٨.

الذنوب جميعاً، والشاهد على ذلك ما ورد في الآية اللاحقة حيث قال سبحانه: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ﴾ حيث إنّ قوله: ﴿وأنيبوا﴾ معطوفة على قوله: ﴿لا تقنطوا﴾ والإنابة إلى الله هي الرجوع إليه وهو التوبة؛ بخلاف آية سورة النساء حيث استثنت المشركين من هذا العفو والرحمة، فإنّها تقصد المشركين الذين ماتوا على شركهم، وليس أُولئك الذين صحوا من غفلتهم واتّبعوا سبيل الله، لأنّ أكثر مسلمي صدر الإسلام كانوا كذلك، أي أنّهم تركوا عبادة الأصنام والشرك بالله وآمنوا بالله الواحد القهّار بعد دخولهم الإسلام.

وبكلمة واضحة: إنّ قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ إنّما هو في هذه النشأة الدنيوية، حيث يغفر مع التوبة جميع الذنوب حتّى الشرك والكفر، بخلاف آية سورة النساء التي استثنت المشرك، فإنّها تختصّ بالنشأة الأخروية، حيث إنّه تعالى لا يغفر الشرك من كافر ولا مشرك، ويغفر سائر الذنوب دون الشرك بشفاعة شافع من عباده أو عمل صالح.

بهذا يتّضح أنّ دور التوبة - بشرائطها التي ستأتي - أعظم بمراتب من دور غيرها من الشفعاء، لكنّها من ناحية أُخرى أضيق ظرفاً من شفاعة الشفعاء الآخرين، لأنّها مختصّة بهذه النشأة ولا يمتدّ تأثيرها إلى الدار الآخرة كما عرفنا.

الفصل الثاني

أركان التوبة وشروطها

أركان التوبة؟

شروط كمال التوبة.

التوبة النصوح.

شرائط قبول التوبة.

الذنوب التي تجب عنها التوبة.

الكبائر والصغائر.

الإصرار على الذنوب.

الاستدراج في الذنوب.

أركان التوبة وشروطها

جاء في «نهج البلاغة» أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال لقائل قال بحضرته «استغفر الله»:

«ثكلتك أُمّك أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العلّيين وهو اسم واقع على ستّة معان:

أوّلها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

والرابع: أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقّها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتّى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية

فعند ذلك تقول: استغفر الله»[١].

يشتمل هذا الحديث الشريف الذي نقله السيّد الرضي عن إمام المتّقين علي عليه السلام على ركنين من أركان التوبة هما: الندامة والعزم على ترك العودة، وعلى شرطين مهمّين للقبول هما: إرجاع حقوق المخلوق لأهلها وردّ حقوق الخالق لله سبحانه. وأمّا الأمران الأخيران، فهما من شروط كمال التوبة، أي أنّ التوبة الكاملة لا تتحقّق ولا تقبل من دونهما.

أركان التوبة

التوبة هي الإقلاع عن الذنب، ويعتبر في تحقّقها ثلاثة أُمور:

- ترك الفعل في الحال.
- الندم على الماضي من الأفعال.
- العزم على الترك في الاستقبال.

قال الغزالي في إحياء علوم الدين: «اعلم أنّ التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أُمور مرتّبة: علم، وحال، وفعل. فالعلم الأوّل والحال الثاني والفعل الثالث. والأوّل موجب للثاني، والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاه اطّراد سنّة الله في الملك والملكوت.

(١) **نهج البلاغة**، الكلمات القصار، رقم: ٤١٧ ص٥٤٩ ضبط نصّه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي الصالح، من منشورات دار الهجرة، إيران ـ قم.

أمّا العلم، فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كلّ محبوب، فإذا عرف ذلك معرفة محقّقة بيقين غالب على قلبه، ثار من هذه المعرفة تألّم للقلب بسبب فوات المحبوب، فإنّ القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألّم، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوّت، فيسمّى تألّمه بسبب فعله المفوّت لمحبوبه ندماً.

فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى، انبعث من هذا الألم في القلب حالة أُخرى تسمّى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلّق بالحال والماضي والاستقبال.

- أمّا تعلّقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابساً.

- وأمّا بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوّت للمحبوب إلى آخر العمر.

- وأمّا بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر.

فالعلم هو الأوّل وهو مطلع هذه الخيرات، وأعني بهذا العلم الإيمان واليقين، فإنّ الإيمان عبارة عن التصديق بأنّ الذنوب سموم مهلكة، واليقين عبارة عن تأكّد هذا التصديق وانتفاء الشكّ عنه واستيلائه على القلب، فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على

القلب نار الندم فيتألّم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنّه صار محجوباً عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب.

فالعلم والندم والقصد المتعلّق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي، ثلاثة معان مرتّبة في الحصول، فيطلق اسم التوبة على مجموعها، وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده، ويجعل العلم كالسابق والمقدّمة، والترك كالثمرة والتابع المتأخّر.

وبهذا الاعتبار ورد عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ الندم على الشرّ يدعو إلى تركه**»[(١)]. وكذلك عن أبان بن تغلب قال: سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: **ما من عبد أذنب ذنباً فندم عليه إلاّ غفر الله له قبل أن يستغفر، وما من عبد أنعم الله عليه نعمة فعرف أنّها من عند الله إلاّ غفر الله له قبل أن يحمده**»[(٢)]. وقال الإمام الباقر عليه السلام: «**كفى بالندم توبة**»[(٣)].

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٤٢٧، كتاب الإيمان والكفر، باب الاعتراف بالذنوب والندم عليها، الحديث: ٧.

(٢) المصدر السابق، الحديث: ٨.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص٤٢٦، الحديث: ١.

حقّ الله وحقّ الناس

صعد عليّ عليه السلام بالكوفة المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: «أيّها الناس إنّ الذنوب ثلاثة؛ فذنب مغفور وذنب غير مغفور وذنب نرجو لصاحبه ونخاف عليه. قيل: يا أمير المؤمنين فبيّنها لنا. قال: نعم.

• أمّا الذنب المغفور فعبدٌ عاقبه الله على ذنبه في الدنيا فالله أحلم وأكرم من أن يعاقب عبده مرّتين.

• وأمّا الذنب الذي لا يغفر فمظالم العباد بعضهم لبعض، إنّ الله تبارك وتعالى إذا برز لخلقه أقسم قسماً على نفسه فقال: وعزّتي وجلالي لا يجوزني ظلم ظالم ولو كفّ بكفّ ولو مسحة بكفّ ولو نطحة ما بين القرناء إلى الجمّاء (الشاة التي لا قرن لها) فيقتصّ للعباد بعضهم من بعض حتّى لا تبقى لأحد على أحد مظلمة، ثمّ يبعثهم للحساب.

• وأمّا الذنب الثالث فذنب ستره الله على خلقه ورزقه التوبة منه، فأصبح خائفاً من ذنبه راجياً لربّه، فنحن له كما هو لنفسه، نرجو له الرحمة ونخاف عليه العذاب»[1].

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٤٤٣، كتاب الإيمان والكفر، باب في أنّ الذنوب ثلاثة، الحديث: ١.

قال المجلسي في «مرآة العقول»: «وجه الحصر أنّ الذنوب إمّا للتقصير في حقّ الله أو في حقّ الناس. والأوّل إمّا أن يرفع العبد العقوبة الدنيوية بالتوبة أو لا. فهذه ثلاثة. وأمّا الذنب الذي لا عقوبة عليه في الدنيا ولم يتب منه، فالظاهر أنّه داخل في القسم الثالث وحكمه حكمه»[1].

(١) **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول**، تأليف: العلاّمة شيخ الإسلام المولى محمّد باقر المجلسي: ج١١ ص٣٢١، دار المكتبة الإسلامية.

شروط كمال التوبة

ما ذكره الإمام عليه السلام في الأمرين الخامس والسـادس، أن يعمد التائب إلى اللحم الذي نبت على السُحت فيذيبه بالأحزان حتّى يلصق الجلد بالعظم، وأن يذيق الجسم ألم الطاعة كما أذاقه حلاوة المعصية، فهما من شرائط كمال التوبة لا أصلها.

توضيح ذلك: «إنّ لكلّ منزل من منازل السالكين مراتب ودرجات، تختلف حسب اختلاف حالات قلوبهم، وإنّ التائب إذا أراد البلوغ إلى مرتبة الكمال فلابدّ من تدارك ما تركه وتدارك الحظوظ أيضاً. يعني لابدّ من تدارك الحظوظ النفسانية التي لحقت به أيّام الآثام والمعاصي وذلك بالسعي لمحو كلّ الآثار الجسمية والروحية التي حصلت في مملكة جسمه ونفسه من جرّاء الذنوب، حتّى تعود النفس مصقولة كما كانت في بدء الأمر، وتعود الفطرة إلى روحانيتها الأصيلة وتحصل له الطهارة الكاملة.

لقد علمت بأنّ لكلّ معصية ومتعة انعكاساً وأثراً في الروح، كما قد يحصل أثر من بعض الذنوب واللذائذ في الجسم، فلابدّ للتائب أن ينتفض ويستأصل تلك الآثار ويقوم بالرياضة البدنية والروحية حتّى تزول منهما كلّ تبعات ومضاعفات الخطايا والآثام كما أمر الإمام عليه السلام.

فعن طريق ممارسة الرياضة الجسمية من الإمساك عن أكل المقوّيات والمنشّطات والصيام المستحبّ أو الواجب إذا كان في ذمّته صيام واجب، يذيب اللحوم التي نشأت على جسمه من الحرام أو المعصية.

وعن طريق الرياضة الروحية من العبادات والمناسك يتدارك الحظوظ الطبيعية، لأنّ صورة اللذّات الطبيعية (المادّية) لا تزال ماثلة في ذائقة النفس، وما دامت عالقة بها ترغب إليها النفس ويعشقها القلب، ويخشى من لحظة طغيان النفس وتمرّدها على صاحبها والعياذ بالله.

فلابدّ على السالك لسبيل الآخرة والتائب عن المعاصي أن يذيق الروح ألم الرياضة الروحية ومشقّة العبادة، فإذا سهر ليلة في المعصية تداركها بليلة في العبادة، وإذا عاش يوماً واحداً مع اللذائذ المادّية تداركه بالصوم والمستحبّات المناسبة حتّى تطهر النفس من كلّ آثار المعاصي وتبعاته التي هي عبارة عن تعلّق حبّ الدنيا

بالنفس ورسوخه فيها وتتطهّر من كلّ ذلك.

فهذان المقامان من المتمّمات والمكمّلات لمنزلة التوبة، والإنسان في بدء الأمر عندما يريد أن يدخل مقام التوبة ويتوب إلى الله لا يظنّ بأنّ المطلوب منه المرتبة الأخيرة من التوبة، حتّى يجد الطريق صعباً، وعملية التوبة شاقّة فينصرف عنها ويتركها.

إنّ كلّ مقدار يساعد عليه حال السالك في سلوكه لطريق الآخرة يكون مطلوباً ومرغوبا فيه، وعندما تطأ قدماه الطريق ييسّر الله تعالى له الطريق، فلابدّ أن لا تحجزه صعوبة الطريق عن الهدف الأصيل لأنّه مهمّ جدّاً وعظيم جدّاً. وإذا انتبهنا إلى عظمة الهدف وأهميّته تذلّلت جميع الصعاب من أجله، وأي شيء أعظم من النجاة الأبدية والرَّوح والريحان الدائمين؟ وأي بلاء أعظم من الهلاك الدائمي والشقاء السرمدي؟ ومع ترك التوبة والتسويف والتأجيل قد يبلغ الإنسان إلى الشقاء الأبدي والعذاب الخالد والهلاك الدائم»[1].

---

(١) **الأربعون حديثاً**، الإمام الخميني: ص٣٠٩ ـ ٣١١، بتصرّف، تعريب السيّد محمّد الغروي، مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخمينيقدس سره الطبعة الثانية: ١٤٢٤هـ

التوبة النصوح

ورد في القرآن الكريم الأمر بالتوبة النصوح؛ قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾[1] وقد ذكر المفسّرون في معنى التوبة النصوح وجوهاً:

- إنّ المراد توبة تنصح الناس أي تدعوهم إلى أن يأتوا بمثلها لظهور آثارها الجميلة في صاحبها.

- إنّ المراد توبة تنصح صاحبها فيقلع عن الذنوب ثمّ لا يعود إليها أبداً؛ عن أبي الصباح الكناني أنّه سأل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ فقال عليه السلام: «**يتوب العبد عن الذنب ثمّ لا يعود فيه**»[2].

---

(١) التحريم: ٨.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ، ص ٤٣٢، كتاب الإيمان والكفر، باب التوبة، الحديث: ٣.

• إنّ النصوح ما كانت خالصة لوجه الله سبحانه؛ من قولهم «عسل نصوح» إذا كان خالصاً من الشمع، بأن يندم على الذنوب لقبحها وكونها خلاف رضى الله سبحانه لا لخوف النار مثلاً.

• إن النصوح من النصاحة وهي الخياطة؛ لأنها تنصح من الدين ما فرّقته الذنوب، أو تجمع بين التائب وبين أوليائه وأحبّائه كما يجمع الخيّاط بين قطع الثوب.

• إنّ النصوح وصف للتائب، وإسناده إلى التوبة من قبيل الإسناد المجازي أي توبة تنصحون بها أنفسكم، بأن تأتوا بها على أكمل ما ينبغي أن تكون عليه حتّى تكون قالعة لآثار الذنوب من القلوب بالكلّية، وذلك بإذابة النفس بالحسرات ومحو ظلمة السيّئات بنور الحسنات.

عن معاوية بن وهب قال: سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: **إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبّه الله فستر عليه**، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: **ينسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه ويوحي إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه، فيلقى الله عزّ وجلّ حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب**»[1].

(١) المصدر السابق: الحديث: ١٢.

وجوب التوبة فوري

لا ريب في وجوب التوبة على الفور، فإنّ الذنوب بمنزلة السموم المضرّة بالبدن، وكما يجب على شارب السمّ المبادرة إلى العلاج تلافياً لبدنه المشرف على الهلاك، كذلك يجب على صاحب الذنوب ـ التي لا يخلو منها إنسان لم يعصمه الله تعالى ـ المبادرة إلى تركها والتوبة منها، ومن أهمل المبادرة إلى التوبة وسوّفها من وقت إلى وقت فهو بين خطرين عظيمين، إن سلم من واحد فلعلّه لا يسلم من الآخر.

• أن يعاجله الأجل فلا ينتبه من غفلته إلاّ وقد حضر الموت وفات وقت التدارك وانسدّت أبواب التلافي وجاء الوقت الذي أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[1] وصار يطلب المهلة والتأخير يوماً أو ساعة فيقال له: لا مهلة كما قال سبحانه: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي

(١) سبأ: ٥٤.

إِلَى أَجَلٍ قَرِيب فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[١].

• أن تتراكم ظلمات المعاصي على قلبه إلى أن تصير ريناً وطبعاً فلا تقبل المحو، فإنّ كلّ معصية يفعلها الإنسان يحصل منها ظلمة في قلبه، كما يحصل من نَفَس الإنسان ظلمة في المرآة، فإذا تراكمت ظلمة الذنوب صارت ريناً كما يصير بخار النفس عند تراكمه على المرآة صداء، وإذا تراكم الرين صار طبعاً، فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم بعضه فوق بعض وطال مكثه، عند ذلك لا تقبل الصيقل أبداً، وقد يعبّر عن هذا القلب بالقلب المنكوس والقلب الأسود.

عن طلحة بن زيد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: **كان أبي يقول: ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة، إنّ القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتّى تغلب عليه فيصيّر أعلاه أسفله»**[٢]. قال الفيض الكاشاني: «يعني ما تزال تفعل تلك الخطيئة بالقلب وتؤثّر فيه بحلاوتها حتّى تجعل وجهه الذي إلى جانب الحقّ والآخرة إلى

---

(١) المنافقون: ١٠ ـ ١١.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٢٦٨، كتاب الإيمان والكفر، باب الروح الذي أيّد به المؤمن، الحديث: ١.

جانب الباطل والدنيا»[1].

وعن زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**ما من عبد إلاّ وفي قلبه نكتة بيضاء ، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب** (أي إذا لجّ ودام على فعله) **زاد ذلك السواد حتّى يغطّي البياض ، فإذا تغطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[2][3].

توضيح ذلك: أنّ من عمل عملاً صالحاً أثّر في نفسه ضياءً، وبازدياد العمل يزداد الضياء والصفاء حتّى تصير كمرآة مجلّوة صافية، ومن أذنب ذنباً أثّر ذلك أيضاً وأورث لها كدورة، فإن تحقّق عنده قبحه وتاب عنه زال الأثر وصارت النفس مصقولة صافية، وإن أصرّ عليه زاد الأثر الميشوم وفشا في النفس وقعد عن الاعتراف بالتقصير والرجوع إلى الله بالتوبة والاستغفار والانقلاع عن المعاصي.

وربما يؤول حال صاحب هذا القلب إلى عدم المبالاة بأوامر

---

(١) نقلاً عن **حاشية الأصول من الكافي**: ج٢ ص٢٦٨، رقم: ٤.

(٢) المطفّفين: ١٤.

(٣) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٢٧٣، الحديث: ٢٠.

الشريعة ونواهيها، فيسهل أمر الدين في نظره ويزول أثـر الأحكـام الإلهية من قلبه وينفر عن قبولها طبعه، وينجـرّ ذلـك إلـى اخـتلال عقيدته وزوال إيمانه، فيموت على غير الملّة، وهو المعبَّر عنه بسوء الخاتمة. نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا.

شرائط قبول التوبة

قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَة ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيب فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[1].

تقدّم أنّ التوبة من الله سبحانه لعبده فضل منه كسائر النعم التي يتنعّم بها خلقه من غير إلزام وإيجاب عليه سبحانه من غيره. بناءً على ذلك فـ «على» في قوله تعالى «على الله» هي حرف للاستعلاء المجازي بمعنى التعهّد والتحقّق، كقولك: عليّ لك كذا، فهو يفيد تحقّق التعهّد. والمعنى: التوبة تحقّ على الله، وهذا مجاز في تأكيد العدة بقبولها حتّى جعلت كالحقّ على الله، ولا شيء بواجب على الله إلاّ وجوب وعده بفضله.

---

(١) النساء: ١٧.

وقد دلّت الآية أنّ الله تعالى يقبل التوبة عن عباده بشرطين:

أحدهما: ﴿للذين يعملون السوء بجهالة﴾ الجهالة: تطلق على الإقدام على العمل دون رويّة. وليس المراد بالجهالة هنا ما يطلق عليه اسم الجهل وهو انتفاء العلم بما فعله، لأنّ ذلك لا يسمّى جهالة وإنّما هو من معاني لفظ الجهل.

توضيح ذلك: إنّ الناس لمّا شاهدوا من أنفسهم أنّهم يعملون كلاًّ من أعمالهم الجارية عن علم وإرادة، وأنّ الإرادة إنّما تكون عن حبّ ما وشوق ما، سواء كان الفعل ممّا ينبغي أن يفعل بحسب نظر العقلاء في المجتمع أو ممّا لا ينبغي أن يفعل، لكن من له عقل مميّز في المجتمع عندهم لا يقدم على السيّئة المذمومة عند العقلاء، فأذعنوا بأنّ من اقترف هذه السيّئات المذمومة لهوى نفساني وداعية شهوية أو غضبية خفي عليه وجه العلم، وغاب عنه عقله المميّز الحاكم في الحسن والقبيح والممدوح والمذموم، وظهر عليه الهوى، وعندئذ يسمّى حاله في علمه وإرادته «جهالة» في عرفهم وإن كان بالنظر الدقيق نوعاً من العلم، لكن لمّا لم يؤثّر ما عنده من العلم بوجه قبح الفعل وذمّه في ردعه عن الوقوع في القبح والشناعة، أُلحق بالعدم، فكان هو جاهلاً عندهم حتّى أنّهم يسمّون الإنسان الشاب الحدث السنّ قليل التجربة جاهلاً؛ لغلبة الهوى وظهور العواطف والأحاسيس على نفسه، ولذلك أيضاً تراهم لا

يسمّون حال مقترف السيّئات إذا لم ينفعل في اقتراف السيّئة عن الهوى والعاطفة جهالة، بل يسمّونها عناداً وعمداً وغير ذلك.

فتبيّن بذلك أنّ الجهالة في باب الأعمال إتيان العمل عن الهوى وظهور الشهوة والغضب من غير عناد مع الحقّ. ومن خواصّ هذا الفعل الصادر عن جهالة أن إذا سكنت ثورة القوى وخمد لهيب الشهوة أو الغضب باقتراف السيّئة أو بحلول مانع بمرور زمان أو ضعف القوى بشيب أو مزاج، عاد الإنسان إلى العلم وزالت الجهالة وبانت الندامة، بخلاف الفعل الصادر عن عناد وتعمّد ونحو ذلك فإنّ سبب صدوره لمّا لم يكن طغيان شيء من القوى والعواطف والأميال النفسانية، بل كان أمراً يسمّى عندهم بخبث الذات ورداءة الفطرة، لا يزول بزوال طغيان القوى والأميال سريعاً أو بطيئاً، بل دام نوعاً بدوام الحياة من غير أن يلحقه ندامة من قريب إلاّ أن يشاء الله.

نعم ربّما يتّفق أن يرجع المعاند اللجوج عن عناده ولجاجه واستعلائه على الحقّ، فيتواضع للحقّ ويدخل في ذلّ العبودية، فيكشف ذلك عندهم عن أنّ عناده كان عن جهالة، وفي الحقيقة كلّ معصية جهالة من الإنسان، وعلى هذا لا يبقى للمعاند مصداق إلاّ من لا يرجع عن سوء عمله إلى آخر عهده بالحياة والعافية.

ثانيهما: ﴿ثمّ يتوبون من قريب﴾ وقد أجمعوا على أنّ المراد من

هذا القرب حضور زمان الموت ومعاينة أهواله، والدليل قوله تعالى في الآية التالية : ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾[١].

ولازم ذلك أنّ عامل السوء بجهالة لا يقيم عاكفاً على طريقته ملازماً لها مدى حياته من غير رجاء في عدوله إلى التقوى والعمل الصالح، كما يدوم عليه المعاند اللجوج، بل يرجع عن عمله من قريب، فيكون المراد بالقريب، العهد القريب أو الزمان القريب وهو قبل ظهور آيات الآخرة وقدوم الموت.

وعلى هذا يكون قوله: ﴿ثمّ يتوبون من قريب﴾ كناية عن المساهلة المفضية إلى فوت الفرصة.

وإنّما سمّى تعالى هذه المدّة إلى ما قبل الموت قريبة؛ لوجوه:

- إنّ الأجل آت، وكلّ ما هو آت قريب.

- للتنبيه على أنّ مدّة عمر الإنسان وإن طالت فهي قليلة قريبة، فإنّها محفوفة بطرفي الأزل والأبد، فإذا قسمت عمرك إلى ما على طرفيها صار كالعدم.

- إنّ الإنسان يتوقّع في كلّ لحظة نزول الموت به، وما هذا

---

(١) النساء: ١٨.

حاله فإنّه يوصف بالقرب.

يتبيّن ممّا مرّ أنّ الشرطين جميعاً – أعني قوله: «بجهالة» وقوله: «من قريب» – احترازيان، يراد بالأوّل منهما أن لا يعمل السوء عن عناد واستعلاء على الله، وبالثاني منهما أن لا يؤخّر الإنسان التوبة إلى حضور موته كسلاً وتوانياً ومماطلة؛ إذ التوبة هي رجوع العبد إلى الله سبحانه بالعبودية، فيكون توبته تعالى أيضاً قبول هذا الرجوع، ولا معنى للعبودية إلاّ مع الحياة الدنيوية التي هي ظرف الاختيار وموطن الطاعة والمعصية.

ومع طلوع آية الموت لا اختيار تتمشّى معه طاعة أو معصية؛ قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إيمَانِهَا خَيْراً﴾[1].

وقال: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[2].

وبالجملة يعود المعنى إلى أنّ الله سبحانه إنّما يقبل توبة المذنب العاصي إذا لم يقترف المعصية استكباراً على الله بحيث

(١) الأنعام: ١٥٨.

(٢) غافر: ٨٥.

يبطل منه روحٍ الرجوع والتذلّل لله ولم يتساهل ويتسامح في أمر التوبة تساهلاً يؤدّي إلى فوت الفرصة بحضور الموت.

فإن قيل: فما فائدة قوله: ﴿**فأُولئك يتوب الله عليهم**﴾ بعد قوله: ﴿**إنّما التوبة على الله**﴾. قلنا فيه وجهان:

الأوّل: إنّ قوله ﴿**إنّما التوبة على الله**﴾ إعلام بأنّه يجب على الله قبولها وجوب الكرم والفضل والإحسان لا وجوب الاستحقاق، وقوله: ﴿**فأُولئك يتوب الله عليهم**﴾ إخبار بأنّه سيفعل ذلك.

الثاني: إنّ قوله: ﴿**إنّما التوبة على الله**﴾ يعني إنّما الهداية إلى التوبة والإرشاد إليها والإعانة عليها على الله تعالى في حقّ من أتى بالذنب على سبيل الجهالة، ثمّ تاب عنها عن قريب وترك الإصرار عليها وأتى بالاستغفار عنها. ثمّ قال: ﴿**فأُولئك يتوب الله عليهم**﴾ يعني أنّ العبد الذي هذا شأنه إذا أتى بالتوبة، قَبِلها الله منه، فالمراد بالأوّل التوفيق على التوبة، وبالثاني قبول التوبة.

وقد اختير لختم الكلام قوله: ﴿**وكان الله عليماً حكيماً**﴾ دون أن يقال: «وكان الله غفوراً رحيماً» للدلالة على أنّ فتح باب التوبة إنّما هو لعلمه تعالى بحال العباد وما يؤدّيهم إليه ضعفهم وجهالتهم، ولحكمته المقتضية لوضع ما يحتاج إليه إتقان النظام وإصلاح الأمور، وهو تعالى لعلمه وحكمته لا يغرّه ظواهر الأحوال بل يختبر

القلوب، ولا يستزلّه مكر ولا خديعة، فعلى التائب من العباد أن يتوب حقّ التوبة حتّى يجيبه الله حقّ الإجابة[١].

(١) ينظر تفسير هذه الآية في: **التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور التونسي**: تأليف سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمّد الطاهر ابن عاشور: ج٤ ص٦٣ ـ ٦٦ **الميزان في تفسير القرآن**: ج٤ ص٢٣٧ ـ ٢٤٢؛ التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ج١٠ ص٣ ـ ٦.

الذنوب التي تجب عنها التوبة

أشار القرآن الكريم إلى أنّ الذنوب تنقسم إلى كبيرة وصغيرة؛ قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾[1] والكبائر جمع كبيرة، وصفٌ وُضع موضع الموصوف، كالمعاصي ونحوها، والكبر معنىً إضافي لا يتحقّق إلاّ بالقياس إلى صغر، من هنا كان المستفاد من قوله: ﴿كبائر ما تنهون عنه﴾ أنّ هناك من المعاصي المنهيّ عنها ما هي صغيرة، فيتبيّن من الآية:

- أنّ المعاصي قسمان، صغيرة وكبيرة.

- أنّ السيّئات في الآية هي الصغائر؛ لما فيها من دلالة المقابلة على ذلك.

ونظيرها في الدلالة قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى المجرِمِينَ

(١) النساء: ٣١.

مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إلاَّ أَحْصَاهَا﴾[١] إذ إشفاقهم ممّا في الكتاب يدلّ على أنّ المراد بالصغيرة والكبيرة صغائر الذنوب وكبائرها.

والحاصل أنّ الآيات دالّة على انقسام المعاصي إلى الصغائر والكبائر بحسب القياس الدائر بين المعاصي أنفسها، ولا ينافي ذلك أن يكون العصيان والتمرّد كيفما كان فهو كبير وعظيم بالنظر إلى ضعف المخلوق المربوب في جنب الله عظم سلطانه، غير أنّ القياس في هذا الاعتبار إنّما هو بين الإنسان وربّه لا بين معصية ومعصية؛ فلا منافاة بين كون كلّ معصية كبيرة باعتبار، وبين كون بعض المعاصي صغيرة باعتبار آخر.

ثمّ إنّ الآية المباركة حكمت أنّ اجتناب الكبائر يكفّر الصغائر، والتكفير من «الكفر» وهو الستر، وقد شاع استعماله في القرآن في العفو عن السيّئات؛ لذا قالت الآية ﴿نكفّر عنكم سيّئاتكم﴾.

والسيّئة هي الحادثة أو العمل الذي يحمل المساءة، ولذلك:

• ربما يطلق لفظها على الأُمور والمصائب التي يسوء الإنسان وقوعها؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَة فَمِنْ نَفْسِكَ﴾[٢].

---

(١) الكهف: ٤٩.

(٢) النساء: ٧٩.

• وربما أطلق على نتائج المعاصي وآثارها الخارجية الدنيوية والأخروية كقوله: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾[(١)] وهذا بحسب الحقيقة يرجع إلى المعنى السابق.

• وربما أطلق على المعصية نفسها كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[(٢)].

والسيّئة بمعنى المعصية:

• ربما أطلقت على مطلق المعاصي أعمّ من الصغائر والكبائر؛ كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[(٣)].

• وربما أطلقت على الصغائر خاصّة كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ إذ مع فرض اجتناب الكبائر لا تبقى للسيّئات إلاّ الصغائر.

ويترتّب على إثبات الكبائر والصغائر أمور تكليفية:

• منها، المخاطبة بتجنّب الكبيرة تجنّباً شديداً.

---

(١) الزمر: ٥١.

(٢) الشورى : ٤٠.

(٣) الجاثية: ٢١.

- ومنها، وجوب التوبة منها عند اقترافها.
- ومنها، أنّ ترك الكبائر يعتبر توبة من الصغائر.
- ومنها سلب العدالة عن مرتكب الكبائر.

وتترتّب عليها مسائل في المباحث الكلامية:

- منها، تكفير مرتكب الكبيرة عند طائفة من الخوارج التي تفرّق بين المعاصي الكبائر والصغائر.
- ومنها، اعتبار مرتكب الكبيرة منزلة بين الكفر والإسلام عند المعتزلة، خلافاً لجمهور علماء الإسلام.

التمييز بين الكبائر والصغائر

وقع الكلام بين الأعلام في بيان ضابط التمييز بين الكبائر والصغائر.

• فمنهم من قال إنّ الكبيرة كلّ ما أوعد الله عليه في الآخرة عقاباً ووضع له في الدنيا حدّاً.

وفيه: إنّ الإصرار على الصغيرة كبيرة؛ لقول النبي صلى‌الله عليه وآله: «**لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار**» رواه الفريقان. مع عدم وضع حدّ فيه شرعاً، وكذا ولاية الكفّار وأكل الربا مع أنّهما من كبائر ما نهى عنه في القرآن.

• ومنهم من قال إنّها كلّ ما يشعر بالاستهانة بالدين وعدم الاكتراث به، قال به إمام الحرمين واستحسنه الرازي.

وفيه: إنّه عنوان الطغيان والاعتداء وهي إحدى الكبائر، وهناك ذنوب كبيرة موبقة وإن لم تُقترف بهذا العنوان، كأكل مال اليتيم وزنا المحارم وقتل النفس المؤمنة من غير حقّ.

• ومنهم من قال: إنّ الكبائر ما اشتملت عليه آيات سورة النساء من أوّل السورة إلى تمام ثلاثين آية، وكأنّ المراد أنّ قوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تُنهَون عنه ...﴾ إشارة إلى المعاصي المبيّنة في الآيات السابقة عليه كقطيعة الرحم وأكل مال اليتيم والزنا ونحو ذلك. وفيه أنّه ينافي إطلاق الآية.

• ومنهم من قال - وينسب إلى ابن عبّاس- كلّ ما نهى الله عنه فهو كبيرة، ولعلّه لكون مخالفته تعالى أمراً عظيماً.

وفيه: أنّه قد تقدّم أنّ انقسام المعصية إلى الكبيرة والصغيرة إنّما هو بقياس بعضها إلى بعض، وهذا الذي ذكره مبنيّ على قياس حال الإنسان في مخالفته ـ وهو عبد ـ إلى الله سبحانه وتعالى ـ وهو ربّ كلّ شيء ـ.

وقد يميل إلى هذا القول بعضهم بتوهّم كون الإضافة في قوله تعالى: ﴿كبائر ما تنهون عنه﴾ بيانية.

لكنّه فاسد؛ لرجوع معنى الآية حينئذ إلى قولنا: إن تجتنبوا المعاصي جميعاً نكفّر عنكم سيّئاتكم. ولا سيّئة مع اجتناب المعاصي.

وإن أُريد تكفير سيّئات المؤمنين قبل نزول الآية اختصّت الآية بأشخاص من حضر عند النزول، وهو خلاف ظاهر الآية من العموم. ولو عمّت الآية عاد المعنى إلى: أنّكم إن عزمتم على

اجتناب جميع المعاصي واجتنبتموها كفّرنا عنكم سيّئاتكم السابقة عليه، وهذا أمر نادر شاذّ المصداق أو عديمه لا يحمل عليه عموم الآية، لأنّ نوع الإنسان لا يخلو عن السيّئة واللمم إلاّ من عصمه الله سبحانه وتعالى بعصمته.

وهناك أقوال أُخر يمكن مراجعتها في المفصّلات[1].

ولعلّ الحقّ في ذلك أن يقال: إنّ كبر المعصية إنّما يتحقّق بأهمية النهي عنها، إذا قيس إلى النهي المتعلّق بغيرها، ولا يخلو قوله تعالى: ﴿ما تنهون عنه﴾ من إشعار أو دلالة على ذلك، والدليل على أهميّة النهي تشديد الخطاب بإصرار فيه أو تهديد بعذاب من النار ونحوه.

الكبائر في الروايات

• عن الحلبي عن الإمام الصادق عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ قال: «**الكبائر التي أوجب الله عزّ وجلّ عليها النار**»[2].

---

(١) ينظر **الميزان في تفسير القرآن**: ج٤ ص٣٢٦ ـ ٣٣٢.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٢٧٦، كتاب الإيمان والكفر، باب الكبائر: الحديث: ١.

• عن نعمان الرازي قال: سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: من زنى خرج من الإيمان، ومن شرب الخمر خرج من الإيمان، ومن أفطر يوماً من شهر رمضان متعمّداً خرج من الإيمان»[١].

• عن عبيد بن زرارة قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن الكبائر فقال: هنّ في كتاب علي عليه السلام سبع: الكفر بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وأكل الربا بعد البيّنة، وأكل مال اليتيم ظلماً، والفرار من الزحف، والتعرّب بعد الهجرة.

قال: فقلت: فهذا أكبر المعاصي؟ قال: نعم، قلت: فأكل درهم مال اليتيم ظلماً أكبر أم ترك الصلاة؟ قال: ترك الصلاة، قلت: فما عددت ترك الصلاة في الكبائر؟ فقال: أي شيء أوّل ما قلت لك؟ قال قلت: الكفر، قال: فإنّ تارك الصلاة كافر»[٢].

• عن عبد العظيم الحسني، عن أبي جعفر الجواد عن أبيه علي بن موسى الرضا عن موسى بن جعفر عليهم السلام قال: دخل عمرو بن عبيد البصري[٣] على أبي عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، فلمّا سلّم وجلس تلا هذه الآية: ﴿الَّذِينَ

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٢٧٨، الحديث: ٥.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٢٧٨، لحديث: ٨.

(٣) الظاهر أنّه عمرو بن عبيد المعتزلي المعروف.

يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾[١] ثمّ أمسك، فقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: ما أسكتك؟ قال: أُحبّ أن أعرف الكبائر من كتاب الله عزّ وجلّ، فقال: نعم.

• أكبر الكبائر الإشراك بالله، يقول الله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾[٢].

• وبعده الإياس من روح الله، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[٣].

• ثمّ الأمن لمكر الله، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٤].

• ومنها عقوق الوالدين، لأنّ الله سبحانه جعل العاقّ جبّاراً شقيّاً في قوله: ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾[٥].

• ومنها قتل النفس التي حرّم الله إلاّ بالحقّ، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول:

---

(١) النجم: ٣٢.
(٢) المائدة: ٧٢.
(٣) يوسف: ٨٧.
(٤) الأعراف: ٩٩.
(٥) مريم: ٣٢.

﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾[١].

• وقذف المحصنة، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

• وأكل مال اليتيم، لأنّ الله عزّوجلّ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾[٣].

• والفرار من الزحف، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَال أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَة فَقَدْ بَاءَ بِغَضَب مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[٤].

• وأكل الربا، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ﴾[٥].

• والسحر، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا

---

(١) النساء: ٩٣.
(٢) النور: ٢٣.
(٣) النساء: ١٠.
(٤) الأنفال: ١٦.
(٥) البقرة: ٢٧٥.

لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَق﴾[١].

• والزنا، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾[٢].

• واليمين الغموس الفاجرة، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾[٣].

• والغلول، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٤].

• ومنع الزكاة المفروضة لأنّ الله عزّوجلّ يقول: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ..﴾[٥].

• وشهادة الزور وكتمان الشهادة، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[٦].

---

(١) البقرة: ١٠٢.
(٢) الفرقان: ٦٩.
(٣) آل عمران: ٧٧.
(٤) آل عمران: ١٦١.
(٥) التوبة: ٣٥.
(٦) البقرة: ٢٨٣.

• وشرب الخمر، لأنّ الله عزّ وجلّ نهى عنها كما نهى عن عبادة الأوثان وترك الصلاة متعمّداً أو شيئاً ممّا فرض الله، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من ترك الصلاة متعمّداً فقد برئ من ذمّة الله وذمّة رسوله.

• ونقض العهد وقطيعة الرحم، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[1].

قال: فخرج عمرو وله صراخ من بكائه وهو يقول: هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم»[2].

ويظهر من الرواية الأخيرة أمران:

الأوّل: «إنّ الكبيرة من المعاصي ما اشتدّ النهي عنها إمّا بالإصرار والبلوغ في النهي أو بالإيعاد بالنار من الكتاب أو السنّة كما يظهر من موارد استدلاله عليه السلام.

ومنه يظهر معنى ما مرّ أنّ الكبيرة ما أوجب الله عليها النار، فالمراد بإيجابها أعمّ من التصريح والتلويح في كلام الله أو حديث النبي صلى الله عليه وآله.

---

(١) الرعد: ٢٥.

(٢) **الكافي**: ج٢، ص٢٨٥ باب الكبائر، ح٢٤.

الثاني: أنّ حصر المعاصي الكبيرة في بعض الروايات في سبع أو ثمان أو تسع، كما في بعض الروايات النبوية المرويّة عن الفريقين، أو في عشرين كما في هذه الرواية أو في سبعين كما في روايات أُخرى، كلّ ذلك باعتبار اختلاف مراتب الكبر في المعصية، كما يدلّ عليه في الروايات من قوله عند تعداد الكبائر: «**وأكبر الكبائر الشرك بالله**»[1].

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج٤ ص٣٣٤.

الإصرار على الكبائر

عن عبد الله بن مسكان عن أبي عبد الله الصادق عليـه السـلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: ما من عبد إلاّ وعليه أربعـون جنّة حتّى يعمل أربعين كبيرة، فإذا عمل أربعـين كبيـرة انكشـفت عنـه الجنن، فيوحي الله إليهم أن استروا عبدي بـأجنحتكم فتسـتره الملائكـة بأجنحتها.

قال: فما يدع شيئاً من القبيح إلاّ قارفه حتّى يمتدح إلى الناس بفعله القبيح، فيقول الملائكة: يا ربّ هذا عبدك مـا يـدع شـيئاً إلاّ ركبـه، وإنّـا لنستحيي ممّا يصنع، فيوحي الله عزّ وجـلّ إلـيهم أن ارفعـوا أجنحـتكم عنه، فإذا فعل ذلك أخذ في بغضنا أهل البيت، فعند ذلـك ينهتـك سـتره في السماء وستره في الأرض، فيقول الملائكـة: يـا ربّ هـذا عبـدك قـد بقي مهتوك الستر، فيوحي الله عزّ وجلّ إليهم: لو كانت لله فيه حاجة مـا أمركم أن ترفعوا أجنحتكم عنه»[1].

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٢٨٩، الحديث: ٩.

قال المجلسي في ذيل هـذا الحـديث: «أربعـون جُنّـة، الجنّـة بالضمّ السترة، والجمع جُنن بضمّ الجيم وفتح النون، يقال: اسـتجنّ بجنّة أي استتر بسترة، ذكره الجوهري وغيره.

• وكأنّ المراد بالجنن ألطافه سبحانه التـي تصـير سـبباً لتـرك المعاصي وامتناعه، فبكلّ كبيرة سواء كانت من نوع واحد أو أنـواع مختلفة يستحقّ منع لطـف مـن ألطافـه أو رحماتـه تعـالى وعفـوه وغفرانه، فلا يفضحه الله بها، فإذا استحقّ غضـب الله سُـلبت عنـه، لكن يرحمه سبحانه ويأمر الملائكة بسـتره، ولكـن لـيس سـترهم كستر الله تعالى.

• أو المراد بالجنن ترك الكبـائر، فـإنّ تركهـا موجـب لغفـران الصغائر عند الله وسترها عن الناس، فإذا عمل بكبيرة لم يتحتّم على الله مغفرة صغائره، وشرع الناس في تجسّس عيوبه، وهكذا إلـى أن يعمل جميع الكبائر وهي أربعون تقريبـاً، فيفتضـح عنـد الله وعنـد الناس بكبائره وصغائره.

• أو أراد بالجنن الطاعات التي يوفّقه الله تعالى لفعلهـا بسـبب ترك الكبائر، فكلّما أتى بكبيرة سُلب التوفيق لبعض الطاعات التـي هي مكفّرة لذنوبه عند الله وساترة لعيوبه عند الناس، ويؤيّده ما ورد عن الصادق عليـه السـلام **أنّ الصـلاة سـتر وكفّـارة لمـا بينهـا مـن الذنوب**.

فهذه ثلاثة وجوه خطر بالبال على سبيل الإمكان والاحتمال»[١].

وقال الفيض الكاشاني: «كأنّ الجنن كناية عن نتائج أخلاقه الحسنة وثمرات أعماله الصالحة التي تخلق منها الملائكة، وأجنحة الملائكة كناية عن معارفه الحقّة التي بها يرتقي في الدرجات، وذلك لأنّ العمل أسرع زوالاً من المعرفة. وإنّما يؤخذ في بغض أهل البيت لأنّهم الحائلون - بينه وبين الذنوب التي صارت محبوبة له ومعشوقة لنفسه الخبيثة - بمواعظهم ووصاياهم عليهم السلام»[٢].

وكذلك عن مسعدة بن صدقة قال: سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: **الكبائر : القنوط من رحمة الله واليأس من رَوح الله، والأمن من مكر الله، وقتل النفس التي حرّم الله، وعقوق الوالدين، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا بعد البيّنة ، والتعرّب بعد الهجرة، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف.** فقيل له: أرأيت المرتكب لكبيرة يموت عليها، أتخرجه من الإيمان، وإن عُذّب بها فيكون عذابه كعذاب المشركين أو له انقطاع؟

قال: **يخرج من الإسلام إذا زعم أنّها حلال، ولذلك يعذّب أشدّ**

(١) **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول**: ج١٠ ص٢١.
(٢) نقلاً عن **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٢٧٩، الحاشية رقم: ٢.

العذاب وإن كان معترفاً بأنّها كبيرة وهي عليه حرام وأنّه يعذّب عليها وأنّها غير حلال، فإنّه معذّب عليها وهو أهون عذاباً من الأوّل، ويخرجه من الإيمان ولا يخرجه من الإسلام»[1].

الصغائر قد تكون كبائر

ذكرت الآيات والروايات مصاديق متعدّدة لبيان كيفية صيرورة الصغيرة كبيرة:

منها: الإصرار والمواظبة

عن عبد الله بن سنان عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: **«لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار»**[2].

أمّا أنّه لا كبيرة مع الاستغفار، فالمراد بالاستغفار التوبة والندم عليها والعزم على عدم العود إليها، ومع التوبة لا يبقى أثر الكبيرة ولا يعاقب عليها. وأمّا أنّه لا صغيرة مع الإصرار، فيدلّ على أنّ الإصرار على الصغيرة كبيرة كما ذهب إليه جماعة من علمائنا، وربما يجعل هذا مؤيّداً لما مرّ من أنّ المعاصي كلّها كبائر؛ بناءً على أنّ المراد بالإصرار الإقامة على الذنب بعدم التوبة والاستغفار كما

(١) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٢٨٠، كتاب الكفر والإيمان، باب الكبائر، الحديث: ١٠.

(٢) المصدر نفسه، الحديث: ١٠.

يدلّ عليه قول الإمام الباقر عليه السلام في ذيل قوله: ﴿ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ قال: «**الإصرار هو أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يحدّث نفسه بتوبة فذلك الإصرار**»[١].

والسرّ فيه: أنّ الصغيرة لقلّة تأثيرها لا تؤثّر في القلب بإظلامه مرّة أو مرّتين، لكن إذا تكرّرت وتراكمت آثارها الضعيفة صارت قويّة وأثّرت على التدريج في القلب، وذلك كما أنّ قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثّر فيه، وذلك القدر من الماء لو صُبّ عليه دفعة لم يؤثّر، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**خير الأعمال أدومها وإن قلّ**» وإذا كان النافع هو الطاعة الدائمة وإن قلّت، فكذلك الضارّ هو السيّئة الدائمة وإن قلّت.

ومنها: استصغار الذنب

• قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نزل بأرض قرعاء** (أي لا نبات فيها) **فقال لأصحابه: ائتوا بحطب، فقالوا: يا رسول الله نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب، قال: فليأت كلّ إنسان بما قدر عليه، فجاءوا به حتّى رموا بين يديه بعضه على بعض. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هكذا تجتمع**

(١) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٢٨٨، كتاب الكفر والإيمان، باب الإصرار على الذنب، الحديث: ٢.

الذنوب»[١].

• وعن أبي أُسامة زيد الشحّام قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **اتّقوا المحقّرات من الذنوب فإنّها لا تغفر**، قلت: وما المحقّرات؟ قال: **الرجل يذنب الذنب فيقول: طوبى لي لو لم يكن لي غير ذلك»**[٢].

• وعن سماعة قال: سمعت أبا الحسن الكاظم عليه السلام يقول: **لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلّوا قليل الذنوب، فإنّ قليل الذنوب يجتمع حتّى يكون كثيراً، وخافوا الله في السرّ حتّى تعطوا من أنفسكم النصف»**[٢].

ومنها: أن يكون الآتي بالصغيرة عالماً يقتدي به الناس

فإذا فعله بحضرة الناس أو بحيث اطّلعوا عليه كبُر ذنبه، وذلك كأخذه مال الشبهة ونحو ذلك، فإنّه ذنب يُقتدى العالم فيه ويُتّبع عليه، فيموت ويبقى شرّه مستطيراً في العالم، «فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه». وفي الخبر: «**من سنّ سنّة سيّئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء**». قال الله تعالى:

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٢٨٨، كتاب الإيمان والكفر، باب استصغار الذنوب، الحديث: ٣.

(٢) المصدر السابق، الحديث: ١، ٢.

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾[١]. والآثار ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل، فعلى التائب وظيفتان، إحداهما: ترك الذنب، والأخرى: إخفاؤه، وكما تتضاعف أوزار العالم على السيّئات إذا اتّبع فيها، فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات إذا اتّبِع»[٢].

علاج الإصرار على الذنوب

العلاج لحلّ عقدة الإصرار على الذنوب أن يتذكّر ما ورد في فضلها كما عرفت ويتذكّر قبح الذنوب وشدّة العقوبة عليها، وما ورد في الكتاب والسنّة من ذمّ المذنبين والعاصين، ويتأمّل في حكايات الأنبياء وأكابر العبّاد وما جرى عليهم من المصائب الدنيوية بسبب تركهم الأَولى وارتكابهم بعض صغائر المعاصي، وأن يعلم أنّ كلّ ما يصيب العبد في الدنيا من العقوبة والمصائب فهو بسبب معصيته، كما دلّ عليه الأخبار الكثيرة، ويتذكّر ما ورد في العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والكبر والحسد والكذب والغيبة وأخذ المال الحرام... وغير ذلك

---

(١) يس: ١٢.

(٢) **جامع السعادات**، للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى محمّد مهدي النراقي: ج٣ ص٧٨، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابعة، منشورات دار النعمان.

من آحاد المعاصي ممّا لا يمكن حصره.

• عن هشام بن سالم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**أما إنّه ليس من عرق يضرب ولا نكبة ولا صداع ولا مرض إلاّ بذنب، وذلك قول الله عزّوجلّ في كتابه:** ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾[1] ثمّ قال: وما يعفو الله أكثر ممّا يؤاخذ به»[2].

• وعن أبي أُسامة عن الإمام الصادق **عليه السلام** قال: سمعته يقول: **تعوّذوا بالله من سطوات الله بالليل** (السطوات: الشدائد) **والنهار**. قال: قلت له: وما سطوات الله؟ قال: **الأخذ على المعاصي**»[3].

• وعن مسمع بن عبد الملك عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **إنّ العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام وإنّه لينظر إلى أزواجه في الجنّة يتنعّمن**»[4].

• وعن أبي عمرو المدائني عن الإمام الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: كان أبي عليه السلام يقول: **إنّ الله قضى قضاءً حتماً**

(١) الشورى: ٣٠.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج٢ص٢٦٩، كتاب الإيمان والكفر، باب الذنوب، الحديث:٣.

(٣) المصدر السابق: الحديث: ٦.

(٤) المصدر السابق: ج٢ ص٢٧٢، الحديث: ١٩.

ألاّ ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إيّاه حتّى يحدث العبد ذنباً يستحقّ بذلك النقمة»[١].

• عن العباس بن هلال الشامي قال: سمعت الإمام الرضا عليه السلام يقول: كلّما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون»[٢].

(١) الأصول من الكافي: ج٢ ص٢٧٣، الحديث: ٢٢.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٢٧٥، الحديث: ٢٩.

الاستدراج في الذنوب

من السنن التي أشار إليها القرآن الكريم بالنسبة إلى الأُمم والأفراد الذين خرجوا عن صراط العبودية لله تعالى، هي سنّة الاستدراج والإملاء؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

قال الراغب الإصفهاني: «سنستدرجهم معناه نأخذهم درجة فدرجة وذلك إدناؤهم من الشيء شيئاً فشيئاً، كالمراقي والمنازل في ارتقائها ونزولها»[2] فيكون المراد هنا «الاستدناء من الهلاك. وتقييد الاستدراج بكونه من حيث لا يعلمون، للدلالة على أنّ هذا التقريب خفيّ غير ظاهر عليهم، بل مستبطن فيما يتلهّون فيه من مظاهر الحياة المادّية، فلا يزالون يقتربون من الهلاك باشتداد مظالمهم، فهو تجديد نعمة بعد نعمة حتّى ليصرفهم التلذّذ بها عن التأمّل في وبال

---

(١) الأعراف: ١٨٢.

(٢) **المفردات في غريب القرآن**: ص١٦٧، مادّة: «ج».

أمرها»[١].

• عن سفيان بن السمط قال: قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله إذا أراد بعبد خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنقمة ويذكّره بالاستغفار، وإذا أراد بعبد شرّاً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ بالنعم عند المعاصي»[٢].

• عن ابن رئاب عن بعض أصحابه قال: سئل الإمام الصادق عليه السلام عن الاستدراج، فقال: هو العبد يذنب الذنب فيملي له (الإملاء: الإمهال) ويجدّد له عندها النعم فتلهيه عن الاستغفار من الذنوب، فهو مستدرج من حيث لا يعلم»[٣].

لذا قال تعالى: ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[٤] «حيث نهى الله سبحانه نبيّه صلى الله عليه وآله عن الإعجاب بأموال المنافقين وأولادهم أي بكثرتها على ما يعطيه السياق، وعلّل ذلك

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج٨ ص٣٤٦.

(٢) **الأُصول من الكافي**: ج٢ ص٤٥٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الاستدراج، الحديث: ١.

(٣) المصدر السابق: الحديث: ٢.

(٤) التوبة: ٥٥.

بأنّ هذه الأموال والأولاد وهي شاغلة للإنسان لا محالة، ليست من النعمة التي تهتف لهم بالسعادة، بل هي من النقمة التي تجرّهم إلى الشقاء، فإنّ الله وهو الذي خوّلهم إيّاها، إنّما أراد بها تعذيبهم في الحياة الدنيا.

فإنّ الحياة التي يعدّها الموجود الحيّ سعادة لنفسه وراحة لذاته إنّما تكون سعادة فيها الراحة والبهجة إذا جرت على حقيقة مجراها، وهو أن يتلبّس الإنسان بواقع آثارها من العلم النافع والعمل الصالح من غير أن يشتغل بغير ما فيه خيره ونفعه، فهذه هي الحياة التي لا موت فيها والراحة التي لا تعب معها واللذّة التي لا ألم دونها، وهي الحياة في ولاية الله؛ قال تعالى: ﴿أَلاَ إنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

وأمّا من اشتغل بالدنيا وجذبته زينتها من مال وبنين إلى نفسها، وغرّته الآمال والأماني الكاذبة التي تتراءى له منها واستهوته الشياطين، فقد وقع في تناقضات القوى البدنية وتزاحمات اللذائذ المادّية، وعُذّب أشدّ العذاب بنفس ما يرى فيه سعادته ولذّته.

فمن المشاهد المعاين أنّ الدنيا كلّما زادت إقبالاً على الإنسان ومتّعته بكثرة الأموال والأولاد، أبعدته عن موقف العبودية وقرّبته

(١) يونس: ٦٢.

إلى الهلاك وعذاب الروح، فلا يـزال يتقلّـب بـين هـذه الأسـباب الموافقة والمخالفة والأوضاع والأحوال الملائمة والمزاحمة، فالذي يسمّيه هؤلاء الغافلون سعة العيش هو بالحقيقة ضنك وضيق، كمـا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[1].

فغاية إعراض الإنسان عن ذكر ربّه وانكبابه على الدنيا، يبتغـي به سعادة الحياة وراحة النفس ولذّة الروح، أن يعـذَّب بـين أطبـاق هـذه الفـتن التـي يراهـا نعمـاً، ويكفـر بربّـه بـالخروج عـن زيّ العبودية»[2] كما قالت الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

وهذا هو الإملاء والاستدراج اللذان ذكرهما الله تعالى في قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[3].

---

(١) طه: ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**: ج٩ ص٣٠٨.

(٣) الأعراف: ١٨٢ ـ ١٨٣.

الفصل الثالث

أقسام التوبة ومراتب التائبين

أقسام التائبين؟

مراتب التوبة والتائبين.

توبة الأنبياء واستغفارهم.

أقسام التائبين

ينقسم حال التائب إلى أقسام:

القسم الأوّل: أن يتوب عن المعاصي كلّها ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرّط ولا يعود إلى ذنوبه، ولا يصدر عنه معصية إلاّ الزلاّت التي لا يخلو عنها غير المعصومين، وهذه هي التوبة النصوح، كما عرفت؛ عن أبي بصير قال: قلت: للإمام الصادق عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ قال: **هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً**»[1] واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربّها راضية مرضية.

القسم الثاني: أن يتوب عن كبائر المعاصي والفواحش ويستقيم على أُمّهات الطاعات، إلاّ أنّه ليس ينفكّ عن ذنوب تعتريه

---

(١) **الأصول من الكافي:** ج٢ ص٤٣٢، كتاب الإيمان والكفر، باب التوبة، ح: ٤.

لا عن عمد وتجريد قصد، ولكن يبتلي بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها، ولكنّه كلّما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسّف وجدّد عزمه على أن يتشمّر للاحتراز عن أسبابها التي تعرّضه لها.

وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوّامة، إذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأي وقصد.

وهذه أيضاً رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى وهي أغلب أحوال التائبين، لأنّ الشرّ معجون بطينة الآدمي قلّما ينفكّ عنه، وإنّما غاية سعيه أن يغلب خيره شرّه حتّى يثقل ميزانه فترجّح كفّة الخيرات، فإمّا أن تخلو بالكلّية كفّة السيّئات فذلك في غاية البُعد؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾[1].

واللمم كما أشارت الروايات هو المعصية حيناً بعد حين من غير عادة، أي المعصية على سبيل الاتّفاق، فيكون أعمّ من الصغيرة والكبيرة وينطبق مضمون الآية على معنى قوله تعالى في وصف المتّقين المحسنين: ﴿وَجَنَّة عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ

(١) النجم: ٣٢.

لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١).

• عن محمّد بن مسلم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت له: أرأيت قول الله عزّوجلّ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: **هو الذنب يلمّ به الرجل فيمكث ما شاء الله ثمّ يلمُّ به بعد**»(٢).

• عن إسحاق بن عمّار عن الإمام الصادق عليه السلام قال: **ما من ذنب إلاّ وقد طبع عليه عبد مؤمن يهجره زماناً ثمّ يلمّ به وهو قول الله عزّ وجلّ**: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: اللمّام العبد الذي يلمّ الذنب بعد الذنب ليس من سليقته (أي من طبيعته))»(٣).

بهذا يتّضح أنّ هذا القدر من الذنب لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرّين، ولا ينبغي أن ييأس هؤلاء من رحمة الله،

---

(١) آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٥.
(٢) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٤٤١، كتاب الإيمان والكفر، باب اللمم، ح: ١.
(٣) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٤٤٢، الحديث: ٥.

قال النبي صلى الله عليه وآله: «**كلّ بني آدم خطّاء وخير الخطّائين التوّابون المستغفرون**»[١].

وعن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ قال: **هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً.**

قلت: وأيّنا لم يعد؟ فقال: **يا أبا محمّد إنّ الله يحبّ من عباده المفتّن التوّاب**»[٢].

قال في النهاية: «المفتّن: الممتحن يمتحنه الله بالذنب ثمّ يتوب ثمّ يعود ثمّ يتوب».

القسم الثالث: أن يتوب ويستمرّ على الاستقامة مدّة ثمّ تغلبه شهوته في بعض الذنوب، فيقدم عليها عامداً قاصداً؛ لعجزه عن قهر الشهوة، إلاّ أنّه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنّما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان، وهو يودّ لو أقدره الله على قمعها وكفاه شرّها، وعند الفراغ يتندّم ويقول: ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأُجاهد نفسي في

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم ٤٢٥١، والحاكم النيسابوري: ٢٤٤/٤ في **المستدرك** وصحّح إسناده، وأخرجه أحمد من حديث أنس كما في الفتح الربّاني: ج١٩ ص٣٣٧.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٤٣٢، الحديث: ٤.

قهرها، لكنّه تسوّل نفسه ويسوّف توبته مرّة بعد أُخرى ويوماً بعد يوم.

فهذه النفس هي التي تسمّى النفس المسوّلة، وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١) فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مرجوّ، فعسى الله أن يتوب عليه، وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره، فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيّة، فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتنّ عليه بالتوبة التحق بالسابقين، وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحقّ عليه في الخاتمة ويسلك في سلك الأشقياء.

القسم الرابع: أن يتوب ويجري مدّة على الاستقامة ثمّ يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدّث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسّف على فعله، بل ينهمك انهماك الغافل في اتّباع الشهوات، فهذا من جملة المصرّين، وهذه النفس هي النفس الأمّارة بالسوء الفرّارة من الخير، ويخاف على هذا سوء الخاتمة وأمره في مشيّة الله، فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها، وإن ختم له

---

(١) التوبة: ١٠٢.

بالحسنى حتّى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولـو بعد حين[١].

(١) ينظر بحث أقسام التائبين، **إحياء علوم الدين**، تصنيف: الإمام أبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي: ج٤ ص٤٣، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

مراتب التوبة والتائبين

لكي تتّضح مراتب التوبة والتائبين، لابدّ من معرفة أنّ الذنب التي تجب عنه التوبة، هل له درجة واحدة أم درجات متعدّدة؟ فإذا ثبت أنّ للذنب مراتب ودرجات، فإنّ التوبة المترتّبة عليها سوف تكون كذلك.

المرتبة الأُولى: الذي يفيده الاعتبار الصحيح هو أنّ أوّل ما يتعلّق به ويحترمه المجتمع الإنساني هي الأحكام العملية والسنن التي تحفظ بالعمل بها والمداومة عليها مقاصده الإنسانية، وتهديه إلى سعادته في الحياة، ثمّ تضع أحكاماً جزائية يجازى على طبقها المتخلّف العاصي عن القوانين الاجتماعية ويثاب المطيع الممتثل.

وفي هذه المرتبة لا يسمّى باسم الذنب إلاّ التخلّف عن القوانين العملية، وتحاذي الذنوب ـ لا محالة ـ في عددها عدد مواد الأحكام الاجتماعية. وهذا هو المعروف والمركوز في أذهاننا معاشر المسلمين أيضاً من معنى الذنب والألفاظ التي تقارنه في المعنى

كالسيّئة والمعصية والإثم والخطيئة والحوب والفسق ونحوها.

وبكلمة واضحة: إنّ المرتبة الأولى من مراتب الذنب، هو الذنب المتعلّق بالأمر والنهي المولويين، وهو المخالفة لحكم شرعي فرعي أو أصلي، وإن عمّمت التعبير قلت: مخالفة مادّة من المواد القانونية دينية كانت أو غير دينية.

ولا شكّ أنّ التوبة التي تترتّب على هذه المرتبة من الذنب، إنّما هي بالرجوع عن المعصية، والندامة على ما مضى والعزم على عدم الإتيان فيما سيأتي ـ كما عرفنا.

المرتبة الثانية: أنّ الأحكام العملية إذا عمل بها وروقبت وتحفّظ عليها، ساقت المجتمع إلى أخلاق وأوصاف مناسبة لها ملائمة لمقاصد المجتمع التي هي غاية اجتماعهم، وهذه الأخلاق هي التي يسمّيها المجتمع بالفضائل الإنسانية ويحرص ويحرّض عليها وتقابلها الرذائل. وهي وإن كانت مختلفة باختلاف السنن والمقاصد في المجتمعات، إلاّ أنّ أصل إنتاج الأحكام الاجتماعية لها ممّا لا سبيل إلى إنكاره.

وهذه الأخلاق الفاضلة وإن كانت أوصافاً روحية لا ضامن لإجرائها في مقام العمل في المجتمعات، وكانت غير اختيارية بلا واسطة، لكونها ملكات، لكنّها لكونها في تحقّقها تتبع تكرّر العمل

بالأحكام والقوانين المقرّرة في المجتمع، أو تكـرّر التخلّـف عـن العمل، كانت نفس العمل بالأحكام ضامنة لإجرائها، وتعدّ اختيارية باختيارية مقدّمتها وهي تكرّر العمل، وتتصوّر فـي مواردهـا أوامـر عقلية متعلّقة بالأخلاق الفاضلة كالشجاعة والعفّـة والعدالـة، ونـواهٍ عقلية تردع عن الأخلاق الرذيلة كالجبن والتهوّر والخمود والظلـم، وكذا يتصوّر لها عقاب وثواب يسمّيان بالعقاب والثـواب العقليـين كالمدح والذمّ.

وبالجملة تتحقّق بذلك مرتبة من مراتب الـذنب فـوق المرتبـة السابقة، وهي مرتبة التخلّف عن الأحكام الخلقية والأوامـر العقليـة المتعلّقة بها.

ومن الواضح أنّ التوبة التي تترتّب على هذه المرتبة من الذنب، إنّما هي بالتحلّي بالأخلاق الفاضلة والتخلّي والرجوع عن الأخلاق الرذيلة.

المرتبة الثالثة: الأحكام الناشـئة فـي ظرفـي الحـبّ والـبغض، فترى عينُ البغض ـ وخاصّة فـي حـال الغضـب ـ عامّـة الأعمـال الحسنة سيّئة مذمومة، ويرى المحبّ إذا تاه في الغرام واستغرق في الوله أدنى غفلة قلبية عـن محبوبـه ذنبـاً عظيمـاً وإن اهـتمّ بعمـل الجوارح بتمام أركانه، وليس إلاّ أنّه يرى أنّ قيمة أعماله في سـبيل

الحبّ على قدر توجّه نفسه وانجذاب قلبه إلى محبوبه، فإذا انقطع عنه بغفلة قلبية فقد أعرض عن المحبوب وانقطع عن ذكره وأبطل طهارة قلبه بذلك.

حتّى أنّ الاشتغال بضروريات الحياة من أكل وشرب ونحوهما يعدّ عنده من الجرم والعصيان، نظراً إلى أنّ أصل الفعل وإن كان من الضروري الذي يضطرّ إليه الإنسان، لكن كلّ واحد من هذه الأفعال الاضطرارية من حيث أصله اختياري في نفسه، والاشتغال به اشتغال بغير المحبوب وإعراض عنه اختياراً وهو الذنب؛ ولذلك نرى أهل الوله والغرام وكذا المحزون والكئيب ومن في عداد هؤلاء يستنكفون عن الاشتغال بأكل أو شرب أو نحوهما.

وهذه المرتبة من الذنب وإن كان لا يعدّه الفهم العرفي من مراتب الذنب، إلاّ أنّه مخطئ في ذلك لا لجور منهم في الحكم والقضاء بل لقصور فهمهم عن تعقّله وتبيّن معناه والوقوف على أحكامه واستحقاقاته.

بناءً على ما تقدّم فربّ مباح أو مستحبّ أو مكروه بالنسبة إلى من هم في المرتبة الأولى والثانية، هو واجب أو محرّم بالنسبة إلى من هو في المرتبة الثالثة، فحسنات الأبرار سيّئات المقرّبين، وذلك كلّه لما أن ميّز مرتبتهم وأساسها المحبّة الإلهية دون محبّة النفس.

ولئن شئت أن تعقل شيئاً من ذلك إجمالاً، فعليك بالتأمّل التـامّ في أطوار العلاقة بين الناس، فللمعاشرة أحكام وللصـداقة أحكـام وللخلّة أحكام ولكلّ من المحبّة والعشق والوجد والوله وما يسمّى فناء أحكام أُخر، وكلّ حكم مختصّ بمرتبة نفسـه لا يتعـدّاها إلـى غيرها أبداً.

وهذا معناه أنّ الحبّ والوله والتيم ربما يـدلّ الإنسـان المحـبّ على أُمور لا يستصوبه العقل الاجتماعي الذي هو مـلاك الأخـلاق الاجتماعية، أو الفهم العـادي الـذي هـو أسـاس التكـاليف العامّـة الدينية، فللعقل أحكام وللحبّ أحكام.

توبة الأنبياء واستغفارهم

ممّا تقدّم في البحث السابق تبيّن أنّ من الذنب ما هو غير الذنب المتعارف، وكذا من المغفرة ما هي غير المغفرة بمعناها المتعارف، وعلى هذا ينبغي أن يحمل ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾[1] وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾[2] وكذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله يستغفر الله عزّ وجلّ في كلّ يوم سبعين مرّة ويتوب إلى الله عزّ وجلّ سبعين مرّة**»[3].

وعليه يُحمل ما حكى الله تعالى عن عدّة من أنبيائه الكرام كقول نوح: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً﴾[4]

---

(١) المؤمن: ٥٥.

(٢) النصر: ٣.

(٣) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٥٠٥، كتاب الدعاء، باب الاستغفار الحديث: ٥.

(٤) نوح: ٢٨.

وقول إبـراهيم: ﴿رَبَّنَـا اغْفِـرْ لِـي وَلِوَالِـدَيَّ وَلِلْمُـؤْمِنِينَ يَـوْمَ يَقُـومُ الْحِسَابُ﴾[١] وقول موسى لنفسه وأخيـه: ﴿رَبِّ اغْفِـرْ لِـي وَلأَخِـي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾[٢].

وهكذا يحمل على هذا الباب مـا حكـي عـن بعضـهم علـيهم السلام من الاعتراف بالظلم ونحوه كقول ذي النون: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ﴾[٣].

قال الإربلي في «كشف الغمّة» وغيرُه في غيره: «إنّ الأنبياء لمّـا كانت قلوبهم مستغرقة بذكر الله ومتعلّقة بجلال الله ومتوجّهـة إلـى كمال الله، وكانت أتمّ القلوب صفاءً وأكثرها ضياءً وأغرقهـا عرفانـاً وأعرفها إذعاناً وأكملها إيقاناً، كانوا إذا انحطّـوا عـن تلـك المرتبـة العلية ونزلـوا عـن تلـك الدرجـة الرفيعـة إلـى الاشـتغال بالمأكـل والمشرب والتنـاكح والصـحبة مـع بنـي نـوعهم وغيـر ذلـك مـن المباحات، أسرعت كدورة إليها؛ لكمال رقّتها وفرط نورانيتها، فـإنّ الشيء كلّما كان أرقّ وأنضر كان تـأثّره بالكـدورات أبـين وأظهـر، فعدّوا ذلك ذنباً وخطيئة، فتابوا واستغفروا، وإليه الإشارة فـي قولـه صلى الله عليه وآله: «**إنّه ليـران** (مـن الـرين) **علـى قلبـي فأسـتغفر الله**

(١) إبراهيم: ٤١.
(٢) الأعراف: ١٥١.
(٣) الأنبياء: ٨٧.

سبعين مرّة»[(١)].

والقرينة على حمل هذه الآيات والروايات على المرتبة الثالثة من الذنب، هو أنّ الأنبياء عليهم السلام بعد أن ثبتت عصمتهم بأدلّة قرآنية واضحة وقاطعة[(٢)] لا يتأتّى أن تصدر عنهم المعصية ويقترفوا الذنب بمعنى مخالفة مادّة من المواد الدينية التي هم المرسلون للدعوة إليها والقائمون قولاً وفعلاً بالتبليغ لها، والمفترض طاعتهم من عند الله، ولا معنى لافتراض طاعة من لا يؤمن وقوع المعصية منه.

وهذا ما أكّدته الآيات القرآنية بطرق مختلفة، منها أنّ الله سبحانه «كرّر في كلامه أنّ له عباداً يسمّيهم المخلصين، مصونين عن المعصية لا مطمع فيهم للشيطان، فلا ذنب بالمعنى المعروف لهم ولا حاجة إلى المغفرة المتعلّقة بذلك الذنب. وقد نصّ في حقّ عدّة من أنبيائه كإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى أنّهم مخلصون كقوله في إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾[(٣)] وقوله في يوسف: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا

---

(١) نقلاً عن **مرآة العقول**، للمجلسي: ج١١ ص٣٠٨.

(٢) ينظر **عصمة الأنبياء في القرآن**، محاضرات السيّد كمال الحيدري، بقلم: محمود نعمة الجياشي.

(٣) ص: ٤٦.

المخْلَصِينَ﴾[١] وقوله في موسى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً﴾[٢] وقد حكى عنهم سؤال المغفرة كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾. وقول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾. ولو كانت المغفرة لا تتعلّق إلاّ بالذنب بالمعنى المعروف لم يستقم ذلك.

على أنّ في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[٣] دعاء لكافّة المؤمنين ـ وفيهم المخلصون ـ بالمغفرة، وكذا في دعاء نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[٤] شمول بإطلاقه للمخلصين، ولا معنى لطلب المغفرة على من لا ذنب له يحتاج إلى المغفرة.

تلخيص

فهذا كلّه ينبّهنا على أنّ من الذنب المتعلّق به المغفرة ما هو غير الذنب بالمعنى المتعارف، وكذا من المغفرة ما هي غير المغفرة بمعناها المتعارف. وقد حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام

---

(١) يوسف : ٢٤.
(٢) مريم: ٥١.
(٣) إبراهيم: ٤١.
(٤) نوح: ٢٨.

قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[1] ولعلّ هذا هو السبب فيما نشاهد أنّه تعالى في موارد من كلامه إذا ذكر الرحمة أو الرحمة الأخروية التي هي الجنّة، قدّم عليه ذكر المغفرة كقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾[2] وقوله: ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾[3] وقوله حكاية عن آدم وزوجته: ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾[4] وقوله عن نوح عليه السلام: ﴿وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾[5].

فتحصّل من البيان السابق أنّ للذنب مراتب مختلفة متربة طولاً، كما أنّ للمغفرة مراتب بحذائها تتعلّق كلّ مرتبة من المغفرة بما يحاذيها من الذنب، وليس من اللازم أن يكون كلّ ذنب وخطيئة متعلّقاً بأمر أو نهي مولوي، فيعرفه ويتبيّنه الأفهام العاميّة الساذجة، ولا أن يكون كلّ مغفرة متعلّقة بهذا النوع من الذنب»[6].

---

(١) الشعراء: ٨٢.

(٢) المؤمنون: ١١٨.

(٣) البقرة: ٢٨٦.

(٤) الأعراف: ٢٣.

(٥) هود: ٤٧.

(٦) **الميزان في تفسير القرآن**: ج٦ ص٣٧٥.

الفهارس

فهرس الآيات

رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة
٩٩: فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ		٧٥
١٥١: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ		١٠٧، ١٠٩
١٨٢ – ١٨٣: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ... إنَّ كَيْدِي مَتِينٌ		٨٩، ٩٠، ٩٢

الأنفال

رقم الآية	رقم الصفحة
١٦: وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذ دُبُرَهُ إلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَال أَوْ مُتَحَيِّزاً إلَى فِئَة	٧٦

التوبة

رقم الآية	رقم الصفحة
٣٥: يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ	٧٧
٥٥: فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا	٩٠،٩٢
٨٠: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً	٣٦
١٠٢: وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً	٩٩
١١٣: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ	٣٧
١١٤: وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إبْرَاهِيمَ لأبِيهِ إلاَّ عَنْ مَوْعِدَة وَعَدَهَا إيَّاهُ	٣٧
١١٨: وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ	٢١

يونس

رقم الآية	رقم الصفحة
٦٢: أَلاَ إنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ	٩١
٩٠ – ٩١: حَتَّى إذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ ... وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ	١٨

فهرس الأحاديث

مقطع من الحديث	اسم المعصوم	رقم الصفحة

النبي الأعظم صلى الله عليه وآله

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

الإمام الباقر عليه السلام

الإمام الصادق عليه السلام

الإمام الكاظم عليه السلام

الإمام الرضا عليه السلام

فهرس المصادر والمراجع

إحياء علوم الدين ١٠٠

تصنيف: الإمام أبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي: دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

الأربعون حديثاً ٥١

الإمام الخميني، تعريب السيّد محمّد الغروي، مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني قدس سره الطبعة الثانية: ١٤٢٤هـ.

الأصول من الكافي ٧، ٨، ١٢، ١٧، ١٨، ٣٠، ٤٦، ٤٧، ٥٣، ٥٤، ٥٦، ٥٧، ٧٣، ٧٤، ٧٨، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ٩٠، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ١٠٦

لثقة الإسلام أبي جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي: دار صعب، دار التعارف للمطبوعات، بيروت – لبنان.

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٣٩

تأليف: العلاّمة الفقيه المفسّر الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى.

شرح المئة كلمة لأمير المؤمنين ٣١، ٣٦

شرح العالم الربّاني كمال الدين ميثم بن علي البحراني على المئة كلمة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ويليه شرحان على تلك الكلمات بعينها: منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية بقم المقدّسة.

عصمة الأنبياء في القرآن ١٠٨

محاضرات السيّد كمال الحيدري، بقلم: محمود نعمة الجياشي.

مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ٤٨، ٨٢، ١٠٨

تأليف: العلاّمة شيخ الإسلام المولى محمّد باقر المجلسي: دار المكتبة الإسلامية.

الميزان في تفسير القرآن ٦،٣٣، ٦٥، ٧٩، ٧٣، ٨٠، ٩٠، ٩٢، ١١٠

للعلاّمة السيّد محمّد حسين الطباطبائي: منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة.

نهج البلاغة ٤٤

وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضي رحمه الله من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ضبط نصّه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي الصالح، من منشورات دار الهجرة، إيران ـ قم.

محتويات الكتاب

الفصل الأول
تعريف التوبة وخصائصها وآثارها

الفصل الثاني

أركان التوبة وشروطها

الفصل الثالث
أقسام التوبة ومراتب التائبين

الفهارس العامة

من آثار المؤلّف

١- العصمة: بحث تحليلي في ضوء المنهج القرآني. تقرير: محمد القاضي
(الطبعة الحادية عشرة)

٢- التقوى في القرآن: دراسة في الآثار الاجتماعية (الطبعة السابعة)

٣- التربية الروحية: بحوث في جهاد النفس (الطبعة السابعة)

٤- بحث حول الإمامة؛ حوار بقلم: جواد علي كسار (الطبعة السابعة)

٥- مدخل إلى الإمامة (الطبعة الخامسة)

٦- التوحيد: بحوث تحليلية في مراتبه ومعطياته (جزءان)
تقرير: جواد علي كسار (الطبعة الخامسة)

٧- عصمة الأنبياء في القرآن. تقرير: محمود نعمة الجياشي (الطبعة الخامسة)

٨- دروس في الحكمة المتعالية (صدر منه جزءان) (الطبعة الثالثة)

٩- بحوث في علم النفس الفلسفي. تقرير: الشيخ عبد الله الأسعد
(الطبعة الثالثة)

١٠- مناهج المعرفة (الطبعة الثالثة)

١١- لا ضرر ولا ضرار؛ بحث فقهي (الطبعة الثانية)

١٢- المنهج العقائدي في تفسير «الميزان» (الطبعة الثانية)

١٣- الشفاعة.. بحوث في حقيقتها وأقسامها ومعطياتها (الطبعة الثانية)

١٤- المذهب الذاتي في نظرية المعرفة (الطبعة الأولى)

١٥- شرح بدايةالحكمة، جزءان. تقرير: الشيخ خليل رزق (الطبعة الأولى)

١٦- في ظلال العقيدة والأخلاق (الطبعة الأولى)

١٧- مقدمة في علم الأخلاق (الطبعة الثانية)

١٨- مفهوم الشفاعة في القرآن. تقرير: الشيخ محمد جواد الزبيدي (الطبعة الأولى)

١٩- مناهج بحث الإمامة بين النظرية والتطبيق.
تقرير: الشيخ محمد جواد الزبيدي (الطبعة الأولى)

٢٠- التفقّه في الدين. بقلم: طلال الحسن (تحت الطبع)

٢١- الإعجاز بين النظرية والتطبيق. بقلم: محمود نعمة الجياشي (تحت الطبع)